

القسم الأول
الروايات والبراهين

الفصل الأول

العالم الرومانى

إن إجابة الفكر فى روما الإمبراطورية تعرض أمام عين الخيال صورة للحرب والفتوح وللكتاب الزاحفة فى ظل النسر المظفر لإخضاع الشعوب القصيدة . على أن الحقيقة البارزة التى يتسم بها القرنان الأولان من الحقبة المسيحية ، هى ذلك السلام العميق الذى ران على حوض البحر المتوسط ، وعم الشطر الأكبر من أوروبا الوسطى والغربية . وفى عهد أوغسطس كانت الإمبراطورية امتدت فعلا إلى أقصى اتساع لها^(١) ، ومن ثم لم يعد هم خلفائه منصرفا فى معظم أمهم إلا إلى ربط أطراف البلاد ببعضها ببعض . وامتدت داخل الحواجز العظيمة المحصنة على الراين والدانوب والفرات ، شبكة من الطرق تغطى ممتلكات روما المترامية ، وتوصل بين تخوم اسكتلندة وبين الصحارى العربية . وكانت تسرى فى هذه الطرق حركة مرور وتجارة لم تبرح فى ازدياد مستمر ، لا يقتصر أمرها على الجيوش والموظفين ، بل تتجاوز ذلك إلى التجار والسلع ، فضلا عن السائحين . وسرعان ما نمت حركة تبادل للسلع التجارية بين الولايات المختلفة ، ولم تلبث تلك الحركة أن بلغت مرتبة لم يسبق لها نظير فى التاريخ ، ولم تتكرر ثانية على صفحته إلا منذ بضعة قرون خلت . وكانت تُحمل فى هذه الطرقات : المعادن المستخرجة من مرتفعات أوروبا الغربية ، والجلود والأصواف والأنعام الحية من مراعى بريطانيا وأسبانيا

(١) مع بضع استثناءات هامة قليلة مثل بريطانيا والمناطق الواقعة شمال الدانوب وشرق الفرات الأعلى .

وشواطئ البحر الأسود والخر والزيت من بروفانس وأكتانيا ، والخشب والقار والشمع من جنوب روسيا وشمال الأناضول ، والفواكه المجففة من سورية والرخام من سواحل بحر إيجه ، وأهم من ذلك كله الحبوب من مناطق زراعة القمح بشمال إفريقيا ومصر ووادي الدانوب سداً لحاجات المدن الكبرى ؛ كل هذه السلع كانت تنقل بملء الحرية من أقصى الإمبراطورية إلى أقصاها ، في ظل نظام للنقل والتسويق بالغ الكفاية والدقة .

الصناعة والتجارة

تلقت صناعة السلع المعدة للتصدير بالجملة أيضاً دفعة قوية ، فزمت الصناعات الزاهرة بكل ولاية من الولايات . وكانت التجارة وأعمال المصارف نشطت منذ عدة قرون في العالم الهلنستي ، وكان الطرف الشرقي للبحر المتوسط أول من أفاد من النظام الجديد . وجملة القول ، إن هذه الولايات الشرقية كانت مناطق الإنتاج والصناعة ؛ على حين أن الغرب كان مستودع المواد الخام . وهكذا كانت دمشق وأنطاكية والإسكندرية تصدر البطاطين والبسط والسجاجيد ونسيج الكتان وأرقى أنواع الخزف وصنوف الزجاج ، الرخيص منه والنفيس ، والجواهر والعطور وأدوات الزينة . ومع ذلك فإن القرنين الأولين شهدا حركة انتقال للصناعة نحو الغرب . وأخذت الثروات تتكدس بأرض الحنطة ، فضلاً عن مناطق إنتاج الخامات مثل بلاد الغالة وأسبانيا وإيطاليا وإفريقية ، ورغبة في تلبية طلبات الطبقات الثرية والمترفة ، تزايدت هجرة اليونانيين والمصريين والسوريين إلى الغرب ليمارسوا مهاراتهم أطباء وفنانين ومعلمين وموسيقيين وصاغة للفضة . وكان السوريون بوجه خاص أعظم تجار ذلك الزمان ؛ فإنهم كانوا ينتشرون في كل أرجاء أوروبا ، مغامرین أفراداً ،

أو كمجتمعات من التجار ، أو يوجدون بمدن أفريقية وأسبانيا ، أو يشتد تراحهم على امتداد طرق التجارة بوادى نهر بو أو حوض الراين . ففي القرن الخامس نفسه ، يلاحظ جيروم بمرارة وجودهم ، ويقرر أنهم يواصلون حركتهم المربحة بين أنقاض عالم منهار . أما تقدم الصناعة فأكثر ما يدل عليه دلالة مباشرة ، ظهور مصانع في الغرب ذات حجم ضخم ، منها مثلاً مراكز لصنع الخزف والزجاج بوسط فرنسا وجنوبها ، وبوادي نهر الراين أو ببريطانيا ، حيث تمكنت السلع المنتجة على أساس الإنتاج الكبير من القضاء على حب الأفراد للتصميمات الكلتية أو توجيه ذلك الحب وجهة أخرى .

وفضلاً عن ذلك لم تكن التجارة تقتصر بأي حال على داخل حدود الإمبراطورية . فإن الحدود لم تكن من هذه الناحية حداً فاصلاً ، بل كانت على العكس من ذلك خط مستوطنات خارجية قائمة على التخوم ، يصل بين نهايات الطرق البرية الرومانية ، ويهيء للبرابرة النازلين خارجها أسواقاً خاصة بالسلع . كانوا يقيضون زينات الخيول ورشحاتها والجواهر والنقود والخزف وحليات البيوت والأدوات والآلات الزراعية على ما لدى البرابرة من رقيق وكهرمان وجلود الحيوان ، فتنتقل من مصانع الغاليين الرومان^(١) (Gallo - Roman) على نهر الراين وتنفذ إلى أعماق وسط ألمانيا ، وتشق طريقها إلى معاقل الرؤساء بالدانيمركة أو جنوب السويد . وكانت السفن التجارية الرومانية ترسو بالموانئ الإيرلندية ، أو ترقاد جنوباً ساحل أفريقية الغربية المكسو بالغابات . على أن التجارة مع الشرق كانت تنطوى على قدر أكبر من الاحتمالات الرومانسية . وكانت تنتهى في البحر الأحمر عدة

(١) الغاليون الرومان أو (الغالو رومان) هم الرومان المأزولون ببلاد غالة أي فرنسا. (المترجم)

خطوط ملاحية عظيمة ، وكان ذلك البحر يتصل بالإسكندرية بمرافأ وقناة وطريق للقوافل يحرس بكل عناية بقوات من الشرطة ، وهو مزود بمستودعات تخزين وصهاريج مياه . وكان أحد هذه الخطوط الملاحية في البحر الأحمر يمتد جنوباً عبر بلاد الحبشة والصومال حتى أوغندة ، وإلى الجنوب منه كان تجار العرب يحتفظون في يدهم بزمام احتسكار التجارة ، وكان العاج ومحار السلاحف والزنوج الأرقاء المجلوبون من الداخل ، يُجمعون مقايضة على الزجاج والأقشة الزاهية الألوان ، فضلاً عن الفتوس والحلى المصنوعة من الشبهان^(١) والنحاس . وكان الركن الجنوبي الغربي من بلاد العرب يصدر البخور والأفاويه إلى الغرب ، وينقل فوق ذلك محصولات بلاد الهند والصين كالقطن والحرير وخشب الساج والابنوس وخشب الصندل ، التي تفرغها السفن بموانئ البحر الأحمر وبالمرافئ الواقعة عند رأس الخليج الفارسي ، ومنها تنقل بطريق القوافل حتى تصل آخر الأمر إلى الإسكندرية ، أو إلى أحد المراكز التجارية السورية كدمشق أو أنطاكية . ثم لم يلبث القوم أن وقفوا إلى اكتشاف الرياح الموسمية ومنفعتيها لهم في التجارة ، وأن بدءوا التجارة المباشرة مع الهند ، وهي حال استبعدت الوسيط التجاري العربي ، وسرعان ما وُظف فيها تجار الإسكندرية وسورية أمواهم . وقد علم استرابون أن عدداً من السفن لا يقل عن مائة وعشرين سفينة كان يسافر منها كل عام إلى الهند ، وتحدث مصادر أخرى عن مستعمرات التجار الأجانب الذين استقروا بمدن شاطئ مالابار الساحلية ، وعن الموانئ العظيمة بجنوبي الهند وسيلان ، بما تحويه من نظم للمنارات وخدمات من المرشدين ، ومستودعاتها الضخمة وأرصفتها ، وعن

(١) الشبهان والشبه : النحاس الأصفر - كما ورد بالمعجم . (المترجم)

وصول السفن التجارية^(١) الرومانية الضخمة إليها ، وهى تنزل شحناتها من الغلمان المغنين والقيان المرسلين إلى حريم أمراء الهند ، وعن أوانها الفضية ونسيجها السكتانى الزاهى ، وعن نبيذ البحر الأبيض الذى تحمله ، وكنوز العملة الذهبية الإمبراطورية ، التى تُدفع ثمنها لجوالق^(٢) الفلفل الضخمة وباللات القطن الثقيلة ، وشتى صنوف الجواهر من ماس ولؤلؤ وزبرجد ، والعقاقير والعمود التى كانت تحملها تلك السفائن إلى العالم الغربى . وأخذ التجار يتوغلون برحلاتهم رويداً رويداً نحو الشرق : حتى عرفوا مصب السكاج وشبه جزيرة الملايو ، ثم استطاع تجار الإمبراطورية الرومانية إنشاء علاقات تجارية مع الموانئ الصينية عام ١٦٠ للميلاد على أن أيام عظمة التجارة الرومانية كانت ولّت آنذاك : فإن الزمن أُنعد عند ذاك لأوروبا قروناً مترادفة من الفوضى ، فلم تتحقق من ثم احتمالات تأثير الصين على حضارتنا .

وكان لسهولة المواصلات ويسر تبادل السلع أثرهما القوي فى نشر الوحدة ، بل إذاعة الانساق فى الدولة الرومانية . وكانت نتيجة ذلك أن اقتسمت غالبية سكانها مستوى مشتركاً للعيش ، فلم يكن الفارق كبيراً بين الأدوات التى تستعملها الدور (الفيلات) بجنوب إنجلترا ومثيلاتها بالجزائر ، مثل المصابيح وأكواب الشراب ووسائل التدفئة والزخرفة الداخلية . وكان الدينار الذهبى يحظى فى منطقة الراين بنفس الثقة التى يلقاها فى بلاد القرم وفى أسواق السنجال (Cingal) وتحددت معايير اللغة بأن سادت اللاتينية فى الغرب واليونانية فى الشرق ؛ واختفى اللسان الوطنى اختفاء تاماً فى كثير من الأصقاع . وكانت النظم المشتركة

(١) وكان يدير هذه السفن رعايا من الرومان فيما يعتقد من شهودهم من الهنود ، ولكن من المحتمل أنهم كانوا سوريين أو مصريين جنساً .

(٢) الجوالق : هى الزكية والفرازة كما ورد فى المعاجم (المترجم)

التي تعيش في ظلها شعوب الإمبراطورية مصدر رابطة أخرى لوحدة تلك الشعوب ، وذلك لأن الحكم بالأقاليم المختلفة ، وإن كان يتكيف طبق الظروف المحلية ، كان نظاماً واحداً في جوهره يدار من مركز الدولة ، وهو فوق ذلك نظام ينزع إلى تزايد الانساق بين الأجزاء وإزالة التخالف . وآية ذلك أنه بمقتضى مرسوم كرا كلا الصادر في ٢١٢ ، صار غالبية رعايا الإمبراطور مواطنين رومانيين ، واختفى من الوجود « الوضع المنحط » لساكن الإقليم . وعلى الرغم من أن النظام الإداري بإيطاليا نفسها ، احتفظ لها طويلاً بامتيازات خاصة فيما يتعلق بالضرائب ، فإنه سوَّى في النهاية بنظام الأقاليم ، كما أن اعترازها بمنزلتها في الغرب — وقد تحدته كل من بلاد الغالة وإفريقية وأسبانيا في ميادين الأدب والتجارة — لقي من هذا الإذلال عناء أشد وأكبر . وما نسوق هذين الأمرين إلا ليكونا مثالين لتطور أبعد أثراً وأوسع مجالاً . ولما تزايدت الأخطار المحدقة بالإمبراطورية عمد رجال السياسة والتدبير فيها إلى مضاعفة جهودهم للمحافظة على الصرح المترنح بتحويله إلى بنيان متجانس ، وشد بعضه إلى بعض « بمنطق » حديدى ، قوامه القوانين والشرائع الجائرة ، غير مباليين بما اتخذوه من صرامة مسرفة ولا بقمع جهود الأحياء وما يشيره ذلك من رد فعل مضاد ، ولم يحفلوا إلا بإقامة كتلة متماسكة متينة غير متميزة من المادة الصلبة .

الشرق والغرب

ولم تكن الشدائد ولا الأخطار التي حاقت بالدولة في عهدها الأخير هي التي خلقت مواطن الضعف والتجريح في النظام الإمبراطورى ، بل كانت هي التي كشفت عن تلك المواطن . والحالات الاجتماعية والاقتصادية المعصرية

المشابهة لما كان في العالم العميد كثيراً ما تطلنا ، وذلك لأنها تنزع إلى إسدال الغموض على نواحي حضارته التي هي أكثر بدائية . وقياساً على معايير زمننا الحاضر ، لا بد أن عدد سكان أوربا في ذلك الزمان كان مفرط الصغر ؛ إذ إن عدد سكان الإمبراطورية الرومانية لم يتجاوز ربع أعداد السكان الذين ورثوا الأقطار التابعة لها . ولم يكن توزيع السكان متعادلاً ، فالشطر الشرقي لم ترجح كفته لحسب في كثافة سكانه بل أيضاً في مستواه من الثروة والحضارة . ولم يكن بالغرب من المدن ، باستثناء روما وقرطاجة ما يعدل المدن الزاهرة ، بآسيا الصغرى وسورية ومصر والتي أربى سكان الكثير منها على مائة ألف نسمة . فالولاية الأخيرة (مصر) كانت على الرغم من صغر حجمها ، تضم ما يقارب سبع سكان الإمبراطورية بأكملها ، كما أن الشطر الأكبر من موارد الإمبراطورية كانت تؤديه الأقطار المطلة على البحر المتوسط الشرقي . ومن الناحية الأخرى ، فالتأيت قطعاً أن المجموع الكلي لسكان الإمبراطورية الرومانية ازداد قلة بعد ثلاثة قرون من قيامها . وكانت إيطاليا وبلاد اليونان أشد البلاد تعرضاً لنقص السكان ، كما أن مناطق مترامية من بلاد الغالة أصبحت خالية من الناس ، لما كابدته من الطاعون والحروب الأهلية . ولم يكن تأثير روما الحضارى على الغرب موزعاً توزيعاً متكافئاً . فإن الطرق الرومانية ، شأن الدروب الجانبية والطرق الرئيسية الشريانية التي تكون شبكة المواصلات ، كثيراً ما كانت تحصر بين خيوطها مناطق مترامية ، لا تكاد فيها لغة السكان وعرفهم وعاداتهم تنأز بأى حال بلغة غزاتهم الغائمين وعاداتهم . وأكثر ما اتضح ذلك فى إقليمى الشمال والغرب ، حيث تنأرت قبائل من الرعاة والزراع البدائين الموزعين توزيعاً خفيفاً بين المستنقعات والغابات ، بصورة لا تنفى بالمطلوب لبيت المال والاستغلال التجارى

على عكس منطقة البحر المتوسط التي اتسع بها نطاق الزراعة . يضاف إلى ذلك أن النفوذ الروماني كان يزداد ضعفاً كلما اقترب من أطراف الإمبراطورية . ولا تنس أن معالم التخوم نفسها أخذت تنطمس ، وتشبع أمراء الألمان وراء الراين بالثقافة الرومانية ؛ وسمح لجمهير غفيرة من البرابرة بالسكنى في الممتلكات الرومانية بشرق بلاد الغالة وفي الأقاليم الواقعة جنوبى الدانوب . بل لقد حدث في عهد الإمبراطورية الرومانية الشرقية المعروفة بالبيزنطية أن بعض المواطنين الرومان كانوا يفضلون الإقامة ببلاط حاكم أجنبي على مواجهة المطالب المتزايدة لجانبى الضرائب الإمبراطورى .

وفى الشرق نفسه ، حيث دأبت الممالك الهلينية التى نشأت عن فتوح الإسكندر على أن تنشر فى كل مكان المثل العليا للحياة بالمدن الإغريقية مدة ثلاثة قرون قبل أن تصل إليه روما — ظلت التقاليد الوطنية كامنة تنتظر ساعة الخلاص السكى تنتفض وتجاهد . ولم يكن للإغريق سوى أقلية صغيرة بسورية ومصر ، حيث صارت لهم مكانتهم بفضل تفوقهم الثقافى ، لا العددى . غير أن الحضارات القديمة بتلك الأصقاع احتفظت بحيويتها وإن غرستها إلى حين ثقافة يونان ، كما أن نمو الأدبين القبطى والسورىانى ، اللذين أنعشهما قيام الكنائس المسيحية التى أصبحت ترجمانا يعبر عن العواطف الانفصالية والمحلية ، قد غذى شعوراً بالتباعد وعدم التجانس مع فاتحيهم الأجانب ، كما زاد فى حدة الممارضة المريرة لسياسة الإمبراطورية وضرائبها . وغنى عن البيان أن فقدان الدولة فى النهاية لهاتين الولايتين إنما يرجع لمثل هذه الأسباب الداخلية ، فإن الغزاة الفرس والمسلمين فى القرن السابع وجدوا عوناً كبيراً من هيئات معادية كثيرة فى هذين الصقعين ، أما آسيا الصغرى فلم يصطبغ

بالصبغة الهلاليستية فيها سوى الحواشى المطلة على البحر . بيد أن المناطق الجبلية الداخلية التى كانت مستراداً لعصابات اللصوص والمنطقة الرئيسية لتجنيد الجند للجيش الرومانى فيما عقب ذلك من زمن ، لم تكن لها أية تقاليد ثقافية تستطيع أن تكون بؤرة يتجمع فيها التدمير ، ومن ثم استطاعت بيزنطة الاحتفاظ بقبضتها على شبه الجزيرة كله إلى عهد متأخر من العصور الوسطى^(١).

الإمبراطورية فى خطر

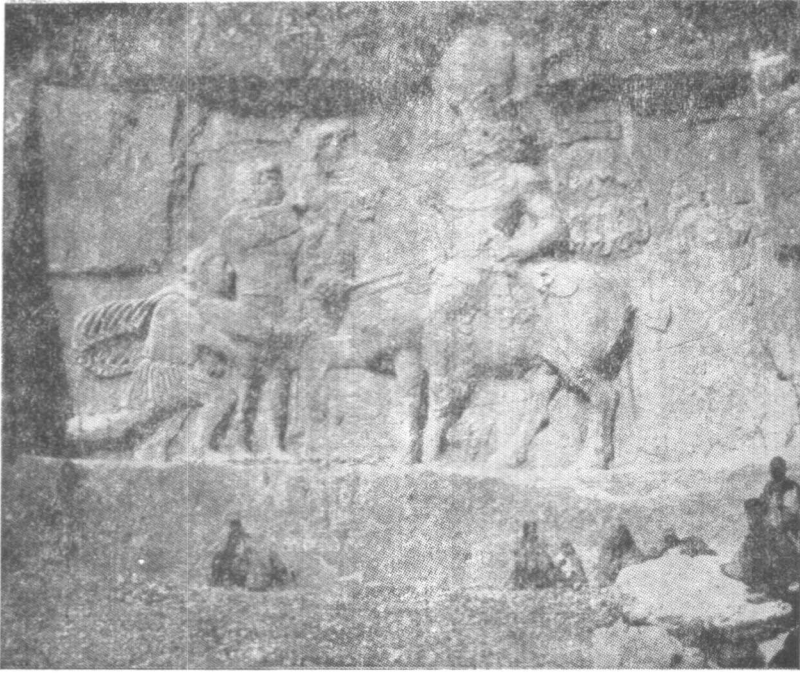
كشفت الضربات المتعاقبة التى تلقتها المنطقة المتحضرة بأوروبا منذ نهاية القرن الأول عن مكان من الخطر على البنىات الإمبراطورية . وشهد عهد ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) انحصار الرغد المرفرف على الدولة ، وأعقب حكم بيت الأنطونيين قرن من الفوضى والاضطراب تضععت فيه قوة الحكومة المركزية ، حيث كانت السلطة سرعان ما تنتقل من إمبراطور قصير العهد إلى آخر ، تنولى تنصيبه أو عزله الفيالق الرومانية حسبما يمليه عليها جشعها أو تقلب أهوائها . وظهر الحكم العسكرى الاستبدادى ففضى على آخر آثار « الحكم الثنائى » غير الواقع الذى أقامه أوغسطس ، وتزايد نفوذ الجيوش مع ازدياد الحاجة إليها . ذلك لأن الحدود أخذت تتعرض لتهديد متزايد : وأخذت القبائل الجرمانية الضاربة فى الشمال من الأراضى المنخفضة إلى وادى الدانوب تضغط على الحواجز القائمة فى سبيلها ، وكان للقراصنة السكسون فى بحر المانش ضريب هو لصوص البحر من القوط فى البحر الأسود وسواحل بحر إيجه الشمالية . ونشأ فى الشرق خطر جديد عندما حل

(١) انظر للمترجم كتاب : « الحضارة البيزنطية » تأليف سقيفن رانسيمان الذى صدر بمجموعة الألب كتاب ، فضلاً عن « الحضارة الهلاليستية بنفس المجموعة » . (المترجم)

آل ساسان (٢٢٧) ذوو النزعة العدوانية محل البارثيين في عرش فارس .
وعندئذ أصبح خط الفرات بحاجة دائمة إلى التعزيزات والإمداد ، ومنذ تلك
الاحظة كان لزاماً على الدولة الرومانية التي لم يعد يتوافر لديها العدد الكافي
من الجنود ، أن تعالج مشكلة الجبهة المزدوجة . وبعد انقضاء فترة دامت نحو
سنة قرون ، جددت فارس محاولاتها لاسترداد سلطاتها على غرب آسيا
بعد أن قضى عليها زحف الإسكندر الأكبر المكلل بالنصر . وهنا ظهر من
جديد ضريب الملك العظيم في أيام ماراتون ، مدعياً أنه ند للحاكم العالمي الآخر
نزير روما . وحدث أكثر من مرة لبان القرن الثالث أن را كبة الفرس
اجتاحوا سورية حتى أوشكوا بلوغ بحر إيجه ، فهددوا بذلك تجارة إقليم من
أغنى الأقاليم . وبلغ الأمر ذروته في حملة عام ٢٦٠ الفاجعة ، عندما أسر عاهل
الفرس خصمه الإمبراطور فاليريان .

ومن المحتمل أن هيبة روما في الشرق الأدنى لم تعد إليها قط بعد تلك
الضربة . ولا بد أن ذلك الفوز الساساني الذي جد الفرس في تسجيله حفراً
في الصخر وتصويراً جصياً (Fresco)^(١) على الجدران ، قد انتشر خبره انتشار
النار في الهشيم ، في مدن ذلك العالم الذي امتدت فيه طرق القوافل من شرق
البحر المتوسط إلى الخليج الفارسي ، الذي اجتمع فيه خليط عجيب من الترف
العالمي الباذخ والشظف الصحراوي الجاسي ، والمصالح التجارية ومناسر اللصوص
والتعصب الأعمى الشديد الأوار ، ما كان من أثره أن صيغت بعد ذلك بعدة
قرون حياة النبي محمد وتشكل تقدم الإسلام . فما كان لروما من قوة عاتية ،

(١) انظر « التقرير عن حفائر دورا يورويوس » الموسم الرابع (نيوهافن ١٩٣٣ ،
ص ١٨٣ - ١٩٩) والحفر البارز الذي لا يزال مرئياً قرب تقصى رستم . انظر اللوحة رقم ١



(١) صورة الإمبراطور فاليريان وهو يركع أمام ساپور الأول

وصفت طرق الصحراء بكنل الحجر ، وملأت حصون الواحات بالحاميات ، وواصلت بسط دائرة نفوذها أماماً على امتداد خطوط التجارة المجلوبة على ظهور الإبل من الهند والشرق الأقصى ، شغلت آنذاك في حرب القوات الإيرانية التي صارت ندأ لها ، ولم تعد تحافظ على نخومها التقليدية^(١) إلا بمسقة بالغة متزايدة . ومن آيات ضعف روما أن ظهرت على الفجاءة دولة تدمر (Palmyra) التي لم تعمر طويلاً ، والتي اعتمدت في حياتها على تجارة القوافل والتي احتفظت باستقلالها المجيد والوجيز الأمد حتى تغلب أورليان على ملكتها زنوبيا^(٢) (Zenobia) . وكانت ظاهرة مماثلة لهذه تجرى في الغرب ، حيث نجحت ولايات الغالة التي خرجت على طاعة السلطة المركزية ، في مقاومة الدولة الرومانية مدة تربو على عشر سنوات . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن إيطاليا نفسها تعرضت لغزو البرابرة ؛ وتشهد أسوار أورليان العظيمة التي لا تزال تحيط بروما ، مثلما تشهد أسوار المدن الإيطالية الأخرى المبنية في ذلك الوقت ، بقرب تحول المدن المفتوحة في العالم القديم إلى معاقل القرون الوسطى^(٣) المحوطة بالخنادق والمحصنة بالأبراج .

وفي أثناء هذه السنوات بلغت الأزمة الاقتصادية في الإمبراطورية ذروتها ،

(١) عن تاريخ حدود الفرات فيما أعقب ذلك من زمن ، انظر كتابنا هذا الفصل السادس .

(٢) ومى القهيرة عند العرب باسم الزباء (المترجم)

(٣) إن المدن المسورة لم تكن بطبيعة الحال شيئاً جديداً ؛ ولكن الأمن الذي أتاه « السلام الروماني » Fax Romana وتطور المواصلات في عهد الإمبراطورية الأولى قللت من الحاجة إلى التحصين وشجعت على انتشار الضواحي على امتداد الطرق الرئيسية . ولا بد أن التباين الواضح بين مظهر المدن القديمة ومظهر مدن القرون الوسطى بنزب أوروبا كان لافتاً جداً للأنظار .

واتفق أن الحاجة إلى المعادن النفيسة اللازمة لدفع أعطيات الفياق ، التي كانت سلطة الإمبراطور تعتمد على ولائها المشتري بالمال ، اجتمعت إلى نقص كارث في خام الذهب والفضة وهبوط عاجل في إيرادات الضرائب . والراجح أن الميزان التجارى في أثناء القرنين الأولين للميلاد كان يمنح لصالح دول آسيا المصدرة . وإن بين أيدينا الآن من الدلائل الأكيدة (وإن كانت التقديرات الدقيقة غير متيسرة) ما يشير إلى تسرب عملى الذهب والفضة من الإمبراطورية الرومانية نحو الشرق . وربما كان ثمة عامل أخطر من هذا ، هو هبوط إنتاج المناجم الأوربية . فإن من الأمور الملحوظة في ذلك الزمن فساد نظام العملة . فاختفى الذهب من التداول ، ولم تعد الفضة المعروفة في الأيام الأولى إلا مجرد عملة نحاسية عليها طلاء رقيق من الفضة . وعلى الرغم من انخفاض قيمة العملة فقد احتفظت الأسعار بشيء من الثبات حتى عهد جالينوس (٢٥٣ — ٢٦٨) ، وذلك بغض النظر عن ارتفاع ضخمة ترتب على تخفيض قيمة السبيكة في الدينار . وعندئذ بدأت فترة تضخم مالى مفرط . إذ حلت أسعار الحنطة بمصر في عهد أورليان حتى بلغت أرقاماً خيالية ، وتبعتها معدلات الأجور وإن كانت بدرجة أقل . وأغلقت المصارف أبوابها ، ولكنها أمرت بأن تعود إلى العمل ؛ وباتت المضاربة في العملة من الأمور المألوفة . وتأثرت التجارة مع الشرق تأثراً جدياً ، وهى التى كانت تقوم على عملة ذهبية كاملة الوزن والنقاء ، ولم تنتعش بعد ذلك إلا في عهد جستنيان ، على الرغم من أن تجارة البحر المتوسط ظلت تحتفظ بقدر كبير من قوتها السابقة .

دقلديانوس وقسطنطين

ومن أوائل الأعمال التى قام بها دقلديانوس في أثناء اضطلاحه بإعادة تنظيم الإمبراطورية ، إعادة العملة الذهبية والفضية ، ولقى هذا الأمر من النجاح

مالم تصادفه محاولاته التالية لضبط أسعار المواد الغذائية بما أصدره من مراسيم. وهناك سؤال ربما كان من المستحيل تقديم الإجابة عنه : - وهو إلى أى حد يمكن القول بأن دقلديانوس أوقف تيار تحول الاقتصاد النقدي المعروف في الإمبراطورية الأولى ، إلى الاقتصاد « الطبيعي Natural » الذي اشتهرت به العصور الوسطى^(١) . وقد استمر الجيش وموظفو الخدمة المدنية يتلقون أعطيات هزيلة ، ولكنهم كانوا يعولون أنفسهم إلى حد كبير من مصادر أخرى - هي حصولهم على الإقامة والجراية ، كما أن النقل وخدمات أخرى غيره كانت مما يفرضه الجند على الناس ، كما كان الموظفون يحتمون على الناس دفع الأتعاب والحلوان وتسهيلات السفر والإقامة المجانية . ومن العسير علينا أن نحدد تقديراً للقيمة النقدية لكل هذه الأمور ، على أن ذلك النظام ظل معمولاً به لعهدي دقلديانوس وقسطنطين ، ولم يكن الجهاز المالي الذي ابتدعه هذان العاهلان ، في جوهره إلا مجرد تسوين قانوني لهذه التدابير شبه النظامية .

وعندي أنه ليس من الغرض من قدر الخدمات الجليلة التي أسداها هذان الرجلان اللذان أقرنت أعمالهما الإمبراطورية مما أحقق بها من انحلال ، أن نرى أن إعادتهما تنظيم الدولة لم يكن في حقيقته سوى قبول واقعي للموقف الفعلي الذي كانت تقفه البلاد ، لا ابتداءً لنموذج جديد للحكومة . على حين أنهم من سبقوهما من الحكام التغييرات اللازمة للجيش؛ أما التفرقة الشديدة بين جيوش الحدود التي كانت تنحط على الدوام فتصبح قوات حراسة مرابطة (Militia) من فلاحين مستقرين ، وبين الجيوش النظامية المؤلفة من صفوفه المقاتلة الأشداء ، فلم تكن إلا اعترافاً بحاجات الزمان ومقتضياته . ذلك أن

(١) انظر التذييل ب

قوة ضاربة سريعة الحركة يمكن إنفاذها في وقت قصير إلى أحد أقاليم الأطراف، تستطيع على الأقل أن تطرد المفسرين البرابرة الذين لم تستطع حاميات التخوم منعهم من الدخول إليها . ومما يشهد بضعف الحكومة المركزية استقلال حكومات الولايات عن السلطة المركزية ، حيث أنشئت وحدات أصغر التماساً للكفاية ، على حين أن مركز الإمبراطور نفسه - وقد غُضَّ منه في العهد الأخير الاعتماد على أهواء الكتائب ، - كان يرفع عالياً فوق كل مصلحة محلية لأى قطاع في الدولة بازدياد مكانته شبه المقدسة ، التى سبق أن تسكن بها فعلاً بعض من سلفوها من الأباطرة ، كما أن التعبير عن ذلك التقديس ، بما كان يجرى عليه من مراسم محكمة بالبلاط ، ربما كان متأثراً بالمثال الفارسي المائل فى بلاط كسرى . وحتى إنشاء القسطنطينية ذاته ، وهو أمر يسجل - والحق يقال - بداية حقبة جديدة ، يمكن من ناحية أخرى أن يعتبر بفاية البساطة مجرد اعتراف تام بحقيقة مقررة . هى أن مدينة روما لم تعد مركز الإمبراطورية .

الوثنية فى عهدها المتأخر

على أن هناك تجديدًا مثيراً آخر قدر له أن يغير أساس الدولة الرومانية بأكمله - هو تحويل وضع المسيحية بفضل ما فعله قسطنطين - من ديانة محرمة إلى العقيدة المكرمة للبيت الإمبراطورى . وكانت سلخت من عمرها وقتذاك قرونًا ثلاثة من النمو والتطور من نواحيها الاعتقادية (Dogma) والإدارية واتساع رقعتها الجغرافية . وبلغ عدد أنصارها بضعة ملايين ، كان ينتمى الجانب الأكبر منهم إلى الأماكن الشرقية ، وذلك فضلاً عن أن ما أشرنا إليه آنفاً من نشاطات اليونان والسوريين فى أوروبا الغربية أفضى إلى حمل التعاليم الجديدة

إلى المراكز التجارية بتلك الأصناف . فالمجتمعات البدائية الأولى حل مكانها منذ أمد بعيد بدايات النظام الطبقي في سلم الوظائف الكليروسي ، الذي اتخذ له جهاز الإدارة المدنية لحكومة الأقاليم مثالا يحتذيه ، وذلك على حين أن الأهمية السياسية والاقتصادية للحواضر العظيمة قيدت ، إلى حد ما ، السلطة التي يستمتع بها أساقفة روما وقرطاجة وأنطاكية وإفيسوس والإسكندرية . وقد بدأت المسيحية بين أدنى طبقات المجتمع مرتبة ، وكان الانتماء إليها لا يزال قاصراً على الأميين غير المتعلمين ، وإن أمكن وجود المسيحيين في كل فئات المجتمع ، بل حتى في دوائر القصر نفسها . على أن ثلاثة قرون من الاتصال بينها وبين عالم الإمبراطورية الرومانية القديمة أفضت إلى إحداث تعديل عميق في الطرائق التي كانت تعبر بها عن نفسها ، كما أن القرن الرابع بما مر به من صروف التغير أدى إلى التعجيل بنتائج ذلك التفاعل . على أنه لا بد من الإدلاء ببعض بيانات ، مهما يكن عدم كفايتها ، عن الجو الذي كان يسود العالم في عهد ثيودوسيوس الأكبر .

وفي إبان هذه القرون تغيرت روح الوثنية تغيراً تاماً . ذلك أن الولاء الحق لآلهة دول المدن القديمة ببلاد اليونان وروما توقف من زمن بعيد بين أفراد طبقة المفكرين من المجتمع ، ولكن عروش تلك الآلهة لم تظل شاغرة . فإن التشكك وإن كان بارزاً في الأدب المسطر ، كانت نحل محله على توالي الأيام فكرة مخالفة عن الدين ، مؤسسة على الرغبة في الاتصال الشخصي بالمعبود المقدس . وما أكثر الأشكال والتجمعات التي ظهرت فيها نحل الأسرار الخفية السائدة في تراقيا ومصر وسوريا وآسيا الصغرى وفارس ، وتبناها العالم

الرومانى ، هذا إلى أن الرطازات^(١) (Myths) الهلينية كانت (إن لم تنبذ)
تنسج بطريقة ذات أسلوب خاص فى التكوين الجديد لهذه العقائد المركبة .
وكانت الظروف السياسية تساعد على صهر العبادات المحلية فى التركيب الأكبر
منها . بل حدث حتى فى البدايات السحيقة لدول المدن بأرض اليونان الأصلية ،
أن كثيراً من آلهة القرى ذوى شأنها حتى أصبح اسمها مجرد صفات تضاف
إلى اسم زيوس أو أثينا ؛ وحدثت عملية مماثلة لهذه فى روما ، وإن عُوِضت
النزعة إلى الوحدة هنا بما كانت تظهره من استعداد لتقبل الآلهة الأجنبية
فى باثنيونها^(٢) المزدهم . وأفضى قيام الملوكتات الهلينية التى قضى على الحياة
المشرقة للمجتمعات بدول المدن ، إلى تحويل أفكار الناس إلى دخيلة
نفوسهم ، حيث شرع كل إنسان يبحث لنفسه عن سبيل إلى الخلاص الفردى ،
على حين أن الاستبداد الذى ران على الممالك الجديدة التى قامت على النسق
الأسبوى ، عود العالم الناطق بالإغريقية على فكرة عبادة الحاكم ، وهى فكرة
تغذوها وترعاها بكل عناية الأسر المالكة المترتبة فى العروش ، بوصف كونها
أداة قوية تعتمد عليها الدولة . وجنت روما ثمار هذه الحال عندما أدخلت عبادة
الإمبراطور ، كما أن المبدأ الرواقى القاضى بالاعتقاد « بالعناية Providence »
البصيرة بكل شىء والمحسنة الخيرة ، ربما عاد بالعون على أبناء الولايات
المتواضعين فى إذكاء فكرتهم التى تصوروها عن الإمبراطور القادر على
كل شىء ، الذى كانت عدالته تتصرف فى حياة ورفاهية الجموع الهائلة
من السكان .

(١) الرطازات (Myths) هى القصص التقليدية المهيمنة عن الآلهة والأبطال ، وخاصة
ما يقدمه العقل البدائى تفسيراً لاحدى الحقائق أو الظواهر . (المترجم)

(٢) الباثنيون : معبد يجمع الآلهة جميعاً . (المترجم)

ولم يعد نمو الفكر الفلسفي معادياً للمعتقدات الشعبية ، بل أصبح يعاون بقوة تيارات التوحيد المشوب^(١) التي كانت تعمل فاشطة في المشاعر الدينية . وقد بدأ الأمر بوضع المسوغات العقلية للرموز القديمة ، ثم استحداث رموز لها ، ثم لم تلبث الظواهر المشتركة بين مختلف الملل والنحل التي اعتبرت معالجات لقوة إلهية واحدة ، - حتى مزجت في كتلة كالسديم حاول أفلوطين بتفكيره السليم أن يستخرج منها قاعدة منتظمة ، مستخدماً في ذلك قوانين الاستدلال العقلي عند اليونانيين ، ومطبقاً إياها على مادة لا تقبل مثل تلك المعالجة . على أن الأفلاطونية الحديثة كانت في يديه منهاجاً للحياة لا مبدءاً ونظرية . وحلت في الأنفس نزعة تأملية محل النظرة الرواقية العملية ، وطريقها في التشديد على الخلق ، ومع أنه لا ينبغي إغفال عنصر التسويغ العقلي (Rationalizing) عند أفلوطين ، وهو افتراض الإغريق أن العالم ممكن الفهم ، لأن أدواره المتعاقبة إنما هي نتائج منطقية إحداها للأخرى ، فإن جوهر فكره إنما هو فهم تصوفي للحقيقة يكاد يكون حسيّاً ، أي أنه إدراك مباشر يتم دون تدخل من ملكة الاستدلال العقلي . ويتيسر هذا بفضل الوشائج الجوانية المتبادلة بين جميع مافي العالم من أشخاص وأشياء ، والتي ترقد متوارية تحت سطح الظواهر ، وبهذه النظرية أيضاً يصبح تفسير الظواهر الطبيعية كالتخاطر (Telepathy) والفأل واقتران النجوم ممكناً . على أن صنع المعجزات والتطهر اتباعاً للطقوس والعرافة ليس إلا جزءاً يسيراً من فلسفة أفلوطين . وقد تحتم على خلفائه في أثناء محاولاتهم تجميع قوى الوثنية كلها على العدو المشترك ، أن يدخلوا تلك الوسائل السحرية المساعدة لنهايتها لهم اقتناص عواطف

(١) التوحيد المشوب (Henotheism) : هو الإيمان بآله واحد ولكن مع عدم انتفاء الإيمان بغيره . (المترجم)

الجماهير ، على حين أنهم التماساً للتقريب بين المفكرين راحوا يمزجون بغاية الأحودية بين العقائد والمذاهب التي قامت في العالم العبيد ابتداء من أفلاطون وأرسطو طاليس إلى الرواقيين والكلبيين . وهكذا يتضح أن علم الكون (Cosmology) التصوفى الذى اشتهرت به الفلسفة الأفلاطونية الحديثة وما حوى من فكرة عن الخلاص ، على صورته التى طورها إيمبليكوس (Iamblichus) ، يعتبر الشكل النهائى الذى اتخذته الوثنية المنظمة أداة فى أثناء كفاحها مع المسيحية^(١) ، وينبغى ألا ينظر إلى الصراع على أنه معركة بين الإيمان والتشكك ، بل منافسة بين ديارتين غريمتين ذواتى خفايا وكل منهما تعبر عن زمانها^(٢) . وبغض النظر عن الاعتقادات (Dogma) لا تسكاد تكون ثمة ناحية غير مشتركة عند كل من الوثنيين والمسيحيين : - الزهد والصوم والتهجد والتطهر والطقوس والقديسين والملائكة والشياطين والاعتماد على الرؤى والتكهنات باستفتاح الكتب^(٣) (Sortes) . والفن الوثنى والمسيحى يستخدمان طريقة رمز واحدة ، حتى ليسر التمييز بينهما ، إلا فى الحالات التى

(١) وهذا الوضع ينطبق بوجه رئيسى على المشرق ، حيث يتم مصطلح « الهلنستية Hellenism » الذى يطلقه المسيحيون على خصومهم ، على المحاولة الواعية وغير الناجعة ، لحشد تقاليد الثقافة الكلاسيكية دفاعاً عن العقيدة القديمة . على حين أن مصطلح « الوثنية » ومى النظير اللاتينى للهلنستية فى الغرب يشير إلى وجود الشوائب القروية البدائية بشكل متناثر . ولقد كانت روما بما اجتمع لها من ذكريات تاريخية مى المسكان الوحيد الذى صمدت فيه نخلة سياسية وأرستقراطية لعادة الآلهة التمداء .

(٢) إن جوليان نصير الوثنية بهاجم الكلبيين الآخذين بالمذهب العقل الذى يسخرون من الرطازات الكلاسيكية ، مهاجمة أكثر شدة ومرارة مما يهاجم أتباع المسيحية . أظن ج . بيديه فى : « La Vie de l' Empereur Julien » (باريس ١٩٣٠) ص ٢٤٨ ع ٥ .

(٣) كان الأقدمون يستفتحون الكتب السماوية أو لياذة هومبروس أو لياذة فرجيل التماساً للقال . (المترجم)

تستخدم فيها الموضوعات المسيحية البحتة ؛ وفضلا عن ذلك ، فإن النقاد المصريين يتجهون إلى تخفيض عدد هذه الحالات^(١) التي يفترق فيها المسيحيون عن الوثنيين . إذ إن المسيحيين كانوا عندما هلّ القرن الرابع قبلوا الدراسات والعلوم الوثنية وتشربوها ، وشاهد ذلك أن المنازعات التي دارت في المجالس الكنسية الكبرى تدور حول أفكار أفلاطون وأرسطو التي كانت تلون أفكار الناس في ذلك العصر وتعدّها على نفس الشاكلة التي تريم بها نظريات النشوء والارتقاء وعلم النفس على العالم اليوم . ومما هو جدير بالذكر أن جوليان في أثناء محاولته إعادة العبادات الوثنية الأولى كان يهدف إلى تأسيس نوع من هيئة دينية أو « كنيسة » تشبه المنظمة المسيحية من أوجه كثيرة ؛ فوضع لها مذهباً اعتقادياً مجدداً وأقام فيها سلماً للوظائف الكنسية ومجموعة من المستشفيات وبيوت الصدقات ومعونة الفقراء وسجلا بالكتب المحرمة^(٢) على المؤمنين (Index Expurgatorius) .

ديانة القرن الرابع

والشاهد المنع على قوة مركز المسيحية ، إخفاق جوليان في تحقيق هدفه إزاء الرأي العام ومعارضته . ذلك أن الرطازات المسوّغة عقلياً والآلهة المندمجة بعضها في بعض كان يعوزها التقبل الشعبي الحسن الذي نجمه قصص الكتاب المقدس ، وهي شيء أقرب في روحه وزمانه لعالم القرن الرابع . ذلك وإن ما في الأفلاطونية الحديثة من نقاط دقيقة خفية ، وما يتصف به

(١) مثل رمز السمكة . انظر ف . ز . ج . دولجر في (Ixoye) (مونستر ١٩١٠ — ١٩٣٢) .

(٢) انظر يديه (Bidez) بالمصدر نفسه ص ٢٦٩ .

التقريب بين النحل عند الوثنية من ليونة وعدم تحديد وراحة نفسية ، كانا بمنزلة سواء ، من حيث ضعف قوتها على إجبار القلوب على الإذعان . وكانت المسيحية في توحيدها القاطع النافي لكل ما عداه تشارك اليهودية في أنها مصدر قوى للاستقرار ، (على النقيض من سائر الديانات القديمة) . فهي عقيدة ليس فيها مكان لآلهة أخرى عدا ما يتوارى في زى الشياطين الشريرة . وكانت مذاهب العقيدة تتشكل وتشتد صلابة على مدى الزمن ، يعززها في ذلك امتلاكها لكتاب مقدس معتمد ، وهذا أيضاً حققت المسيحية لهذا الزمان حاجة كان يطلبها ، وذلك لأن من خصائص المراحل المتأخرة في الفكر اليوناني الروماني ، ازدياد اعتماده على سلطان الشواهد المعتمدة . وغير خاف أن عبقرية بلاد اليونان الأصلية القادرة على الخلق والابتكار اختفت من زمن بعيد ، وأن الانتصارات التي أحرزها الرومان في ميادين الأدب والفن والعمارة والهندسة بل حتى القانون ، كانت في أغلب أمرها ثمرة التطبيق الذكي لمبادئ مكتشفة من قبل^(١) . وكان الناس يحسون أن العصر الذهبي قد ولى . ومن الموضوعات المألوفة في كتابات ذلك الزمان ازدياد الشغف بالماضي والشعور بالنقص في الحاضر . فإن الإمبراطور قسطنطينوس طوى في نفسه عند زيارته روما لأول مرة في أخريات أيامه ، إعجابه بالسوق (الفوروم) التي أنشأها تراجان ؛ ولكنه رأى أنه ليس في وسع الإنسان الفاني أن يطاول مثل هذا العمل العظيم ، وصرح

(١) انظر الحكم القاطع الذي أصدره بيوري حيث قال : « لم يبتكر رومان الإمبراطورية شيئاً . وليس من الغلو في شيء أن تقول ، إن الصفة الغالبة على العالم الروماني من عهد أوغسطس حتى سقوط أوغسطوس ، الانتقار إلى الأفكار والمجاز عن التفكير الجاد العميق ، وفرط التوقير للرابع المعتمدة » .

بأنه ليس كفوا إلا لمحاكاة حصان تمثال تراجان (Trajan) الذى يمثل
فى هيئة^(١) الفارس .

وفوق هذا ، كان القرن الرابع عصرآ يسيطر عليه « المجهول » . فإن
خيوطاً خفية كانت تسلك كل شىء فى العالم مجموعات من التعاطف أو التنافر .
فالشمس والقمر يمارسان سلطانهما على المخلوقات التابعة لمملكتيهما . ولصيحة
الديك فى الصباح وشخوص عين الزهر إلى ضياء الشمس معناهما الخفى^(٢) .
والإنسان نفسه ، ذلك الكائن الذى يولد فى ظل اقتران النجوم ، والذى
ترافقه مدى الحياة الروح الحارسة ، اتخذ وضعه فى عالم كل شىء فيه — حتى
الجمادات — له صفات سحرية ، وقد يعود عليه أقل الأفعال أو الأحداث
بالشؤم أو الثبور . ولم يأت على الإنسان حين سمع فيه الصوت السماوى أكثر
ولا أوضح منه فى هذا الزمان . وكانت الرؤى وتأويلاتها تزداد على الأيام
بروزآ ، وأخذ عالم الأحلام يحتاج على الدوام ساعات يقظة الإنسان . واتخذ
الفكر فى ذلك الزمن صبغة ذاتية قوية ؛ وازدادت قيمة ما انطوى عليه
الإنسان من صراع داخلى وتجربة عاطفية ، بينما أخذ العالم الخارجى يختفى
فى سحب الوم والخيال . ولو أنك نظرت إلى العمل العظيم الذى ألفه القديس
أوغسطين ، وهو عمل لا يمكن إيفاؤه حقه من تبيان أثره على الناس فى العصور
الوسطى ، لوجدته يتصف بهذه الصفة الشبيهة بالأحلام . وإن الأسنة المشحودة
فى بيانه اللغوى الفاخر والمتناقض أيضاً فى كثير من الأحيان ، لتزود الجدلين
فى مختلف المدارس بل حتى فى المدارس المتضادة بمستودع كامل للسلاح ، كما

(١) أميان فى ١٦ ، ١٠ ، ١٥ .

(٢) نلّس فى أعمال السحر بالمصور الوسطى آثاراً لكثير من هذه الوثنية المتأخرة .

أن مزاعم البابوية والإمبراطورية في غرب أوروبا والتي لم يتصورها خيال أوغسطين قط ، كانت تدور المناظرات فيها على أساس جدلياته. ولكن ينبغي لنا أن نفرق بين أوغسطين ابن القرن الرابع وبين البناء الجديد الذي شيدته على أساساته طاقات قادرة على التنظيم ظهرت في القرون التالية . وإن أوغسطين ليقف وسط العالم القديم تحده حدود الإمبراطورية الرومانية ، ومع ذلك فهو يملك جميع موارد الثقافة الغريسية . على أنه في الحين نفسه يقف بمعزل من هذا العالم ، ملففًا في حلمه الجميل بمدينة سماوية ليس من فيها من القطان إلا غرباء وحجاجًا على هذه الأرض . وكان هذان المظهران جميعا : وأعنى بذلك وحدة الحضارة الوثنية والمسيحية من ناحية ، والصدع العميق القائم بينهما من ناحية ثانية ، غريبين جميعاً عن العصور الوسطى ، يوم لم يعد خضوع الحضارة الوثنية والمسيحية السابق لأباطرة الرومان سوى ذكرى في غرب أوروبا^(١) ، ويوم ذوى نهر الدراسات الكلاسيكية حتى أصبح مجرد بضعة جداول قليلة توجه بعناية إلى قنوات الكنيسة ورجالها . ولو نظرنا من زاوية ذلك العصر إلى كتاب « مدينة الله Civitas Dei » الذي وضعه أوغسطين لوجدناه تأكيداً حاراً للتدخل الإلهي في الشؤون البشرية ، أكثر منه « فلسفة للتاريخ » ؛ ووجدناه رؤيا وجدية أكثر منه صوغا تكهنياً للحدود القادمة مستقبلا للكنيسة والدولة ، ألفه متصوف فيلسوف تعالى عن الحقائق المحزنة التي يحتويها زمانه ، بما ديج من وصف لمجتمع مثالي ، يقوم على مبدأ العدالة الحقة ، فيلسوف لم يتطلع إلى عالم الحس بل إلى شرفات مدينة سرمدية لم تبناها يد^(٢) .

(١) إن الأثر العميق لتلك الذكرى معروف مشهور : ولكنه أثر يمارس في عالم الفكر لا الحقائق .

(٢) انظر المقارنة التي عقدها المستشرق جرونيباوم في كتاب « حضارة الاسلام » الذي صدر للمترجم بمجموعة الألف كتاب ، - بين القديس أوغسطين وبين الإمام الغزالي س ٣٤٨ (المترجم)

وحدة الإمبراطورية

عند وفاة ثيودوسيوس ، قسمت الإمبراطورية بين ولديه ، أركاديوس وعمره ١٨ سنة وقد ورث الجزء الشرقى ، وهنوريوس وعمره ١١ سنة ونال الجزء الغربى . ولم يكن فى ذلك التقسيم شيء جديد . إذ كانت هناك دوما فروق معينة بين الولايات الغربية ، التى كانت ثقافتها وحياة المدن فيها مما أنشأته روما ، والمناطق الشرقية التى كانت لا تزال تحتفظ بالتقاليد الهلينية . وقد كان تنظيم الإمبراطورية فى عهدى دقلديانوس وقسطنطين ، ذلك التنظيم الذى مهد السبيل لتولى إمبراطورين فى الإمبراطورية ، تهماً له أن يستقر بوصفه التنظيم الطبيعى للأمور ، الذى استطاع أن يثبت على اضطرابات القرن الرابع^(١) . ولذا كان أول ما قام به فالنتينيان من أعمال (٣٦٤) عندما تولى عرش الإمبراطورية ، أن عين فالنز إمبراطوراً شريكاً . ومنذ تلك الساعة أخذ شطرا الإمبراطورية فى الافتراق السريع . ولم تهماً إلا فرص قليلة ، وعلى أزمئة متباعدة لقيام الشطرين بعمل موحد ؛ ولعل آخرها الحملة البحرية الكبرى التى سيرت فى ٤٦٨ على جزيرك (Gaiseric) فاتح أفريقيا الوندالى ، الذى كانت قرصنته تهدد تجارة البحر المتوسط بأكملها ؛ على أن هذه المحاولة القائمة على التعاون انتهت بالإخفاق التام .

ومع ذلك فمن الأمور الهامة أن يتذكر القارئ أن الإمبراطورية ظلت فى عين معاصريها ، وحدة واحدة غير قابلة للتقسيم . ومن الأمور الزائفة والغريبة عن فكرات ذلك الزمان التحديث عن « الإمبراطورية الشرقية

(١) انظر مايل فى هذا الفصل بعنوان « الإمبراطور » . إذ عادت الإمبراطورية منذ عام ٤٨٠ فأصبحت من جديد تخضع لامبراطور واحد .

والإمبراطورية الغربية « ؛ ذلك أن الناس كانوا يفكرون في شطرى
الإمبراطورية باعتبار كونهما : «الجزئين الشرقى أو الغربى» (Partes orientis
(Veloccidentis) . ومن الأمور الشائعة قولهم إن «الإمبراطورية الغربية»
سقطت في ٤٧٦ عندما خلع أودواكر الإمبراطور رومولوس أوغسطولوس ،
بيد أن ذلك القول ينطوى على غلطة مزدوجة . ذلك أن رومولوس كان مفتصباً
للعرش . إذ إن الإمبراطور الشرعى للأجزاء الغربية الذى لجأ إلى دالماشيا
قبل ذلك يبضع سنوات ، قدمات في ٤٨٠ . وكان معنى ذلك من الناحية
الدستورية أن زينون أصبح يحكم آنئذ الإمبراطورية كاملة غير مقسمة من
بيزنطة . واعترف المتبربرون بمبدأ استمرار الإمبراطورية ذاك ، كما أن بعض
زعمائهم كانوا يناصرون ذلك المبدأ مناصرة حقة ^(١) . ومن شواهد ذلك أيضاً ،
أنه حدث بعد ٤٧٦ بزم من بعيد أن السنوات لم تنزل تؤرخ باسمى القنصلين ،
الذين ينزل أحدهما بروما ويقطن الآخر القسطنطينية ، كما أن الدساتير
الإمبراطورية لم تبرح تعلن باسم الإمبراطورين كليهما ، وإن كان الذى حدث
بعد ٤٥٠ هو أن القوانين الغربية لم تعد تنشر فى الشرق . فإن الإمبراطورية
كانت من الناحية النظرية دولة واحدة (Respublica) ، يعقد البرابرة معها
المعاهدات ، على أننا نصادف مرتزقة البرابرة (Foederati) فى الشرق يقاتلون
مرتزقة الغرب من البرابرة . وحدث ذات مرة أن استيليسكو قائد هونوريوس
اعتبرته القسطنطينية « عدواً للدولة » لأنه حاول أن يفصل إقليم (Prefecture)

(١) أمثال ألابريك وأتواف ونيودريك . انظر القوط الغربيون بالفصل الثانى وانظر مملكة
نيودريك بالفصل الثالث . ومن الحقائق البارزة طوال المصور المظلمة ، أن حكماً بيزنطة ظلوا
على الدوام يؤكدون إدعائهم الحق فى ممارسة السيادة على ممتلكات روما بأوربا الغربية ؛
وأن مركز شرمسان لا يمكن أن يفهم دون الرجوع إلى ذلك الادعاء . بل إن . وريخا بيزنطيا كتب فى
القرن الثامن نفسه يقول إن فرنسا قسم من الأقسام الإدارية (Diocese) بالإمبراطورية الرومانية .

إليريا (Illyricum) عن الشرق وبضمه إلى نصيب سيده . ولم يتردد الإمبراطور زينون في شهر السيف على إيطاليا ، يوم استطاع بإرساله ثيودوريك المهاجمة أودواكر ، أن يخلص تراقيا من شر قومه من القوط وأن يرحم الخزائن البيزنطية من النفقات الطائلة التي يدفعها لهم أعطيات .

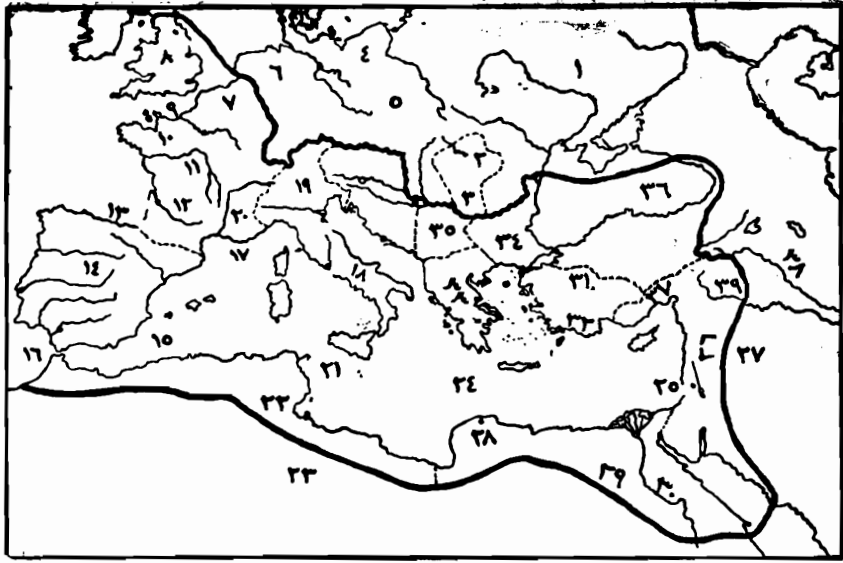
ومنذ أن افتتح قسطنطين عاصمته الجديدة في (٣٣٠) أخذت القسطنطينية تنمو على حساب روما . وكانت من الناحية التجارية أهم منها كثيراً ؛ ذلك أن مركز التجارة العالمية انتقل إلى شرق البحر المتوسط ، وظهر في الأفق منافس قوى لأنطاكية والإسكندرية . وكانت عظمة الأساقفة تطابق إلى حد كبير عظمة مدنهم ؛ وبذا صار كرسي القسطنطينية الأسقفى الذى كان تابعاً أول الأمر لهرقلية مثار حسد المطارنة ، ثم صار آخر الأمر يفوق في المكانة كرسي الإسكندرية وأنطاكية جميعاً ، ولا يسبقه سوى كرسي القديس بطرس بروما ، وذلك لأن : « القسطنطينية هي روما الجديدة » . وكانت المدينة من الناحية السياسية مركز القيادة العليا لنظام عسكري وإداري عظيم . بل لقد كان لها مجلس شيوخ خاص ، وإليها كان يرد القمح من مصر ، وقد كان الحصول عليه امتيازاً لروما في أحد الأيام .

وفي أثناء المائة الأخيرة من السنين ، لم يدخل روما سوى أباطرة ثلاثة ، وهو أمر يتفجع عليه الشاعر كلوديانوس . ذلك أن روما أصبحت مدينة إقليمية . وظلت ميلانو التي تقع على مسافة دانية من الحدود الإيطالية ، مقراً للإمبراطور حتى انسحب منها هونوريوس خشية سطوة الأريك ، إلى مستنقعات رافنا ، التي أصبحت قصبة الحكم نيفاً وقرناً من الزمان . وقد كانت غيبة الأباطرة سبباً في أن روما صارت في قبضة البابوات ، الذين شرعوا

آنذاك رويداً رويداً في تنمية سلطاتهم في أثناء القرون الوسطى . كان البابوات يستطيعون في الحين المناسب أن يتحدثوا الإمبراطور ، وأن يتفاوضوا مع المتبررين ، وأن يرفعوا الرأس عالياً لئلا البقية الباقية من الأرستقراطية الرومانية التي يتزعمها والي (Prefect) المدينة رئيس جماعتهم ، بعكس بطارقة القسطنطينية الذين كانوا يعيشون في ظل القصر . ولما أن سقطت روما أصيب العالم المتحضر بهزة شديدة ابتداء من أوغسطين في هيبو إلى جيروم في بيت لحم . ولكن الصدمة قد أصابت العواطف وحدها (وإن لم تكن رغم ذلك إلا صدمة حقيقية) . إذ إن روما كانت المدينة المقدسة : التي استودعت كلا من النظام القديم والعقيدة الجديدة ، ففيها كوخ رومولوس وقبر بطرس القديس . ولكنها لم تعد منذ زمن بعيد المركز الفعلي للإمبراطورية .

الحدود

وفي (٣٩٥) أصبحت الأقاليم الشمالية الغربية من الإمبراطورية على عتبات تغيرات هامة . ففي بريطانيا بات الدفاع عن « الشاطئ السكسوني » ، أي صفحة البحر المعرضة لهجمات السكسون في بحر الشمال وعلى كل من جانبي بحر المانش ، أهم مصدر لقلق روماني أثناء القرن الرابع ؛ إذ يبدو أن مجموعة من القلاع امتدت قرب نهاية ذلك القرن على ساحل يوركشير . ولكن الجيوش الرومانية انسحبت في (٤٠٢) لتسهم في الدفاع عن إيطاليا . وفي (٤٠٧) عبر مرشح للعرش اسمه قسطنطين حدود بلاد الغالة بمعظم القوات الرومانية ، وهناك هزم هزيمة تامة ولقي مصرعه على يد قواد هونوريوس . ولم تعد الجنود إلى موطنها ، ثم انقضت مائة سنة لم يسمع فيها إلا القليل عن بريطانيا . ويشهد علم الآثار ولا سيما ما عثر عليه من النقود بما حدث من التخلي عن المواقع



(٢) خريطة الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع

- | | | |
|--------------------|--------------------|--------------------|
| ١ - القوط الشرقيون | ٢ - داكيا | ٣ - القوط الغربيون |
| ٤ - اللومبارد | ٥ - الوندال | ٦ - السكسون |
| ٧ - الفرنجة | ٨ - إقليم بريطانيا | ٩ - نهر السين |
| ١٠ - باريس | ١١ - بلاد الغال | ١٢ - بوانيه |
| ١٣ - بوردو | ١٤ - إقليم أسبانيا | ١٥ - قرطاجنة |
| ١٦ - أشبيلية | ١٧ - مرسلية | ١٨ - إيطاليا |
| ١٩ - ميلان | ٢٠ - ارلس | ٢١ - قرطاجنة |
| ٢٢ - إقليم إفريقية | ٢٣ - الماوريون | ٢٤ - البحر المتوسط |
| ٢٥ - بيت المقدس | ٢٦ - إقليم الشرق | ٢٧ - العرب |
| ٢٨ - برقة | ٢٩ - إقليم مصر | ٣٠ - نهر النيل |
| ٣١ - آسيا | ٣٢ - أزمير | ٣٣ - مقدونيا |
| ٣٤ - تراقيا | ٣٥ - إقليم داكيا | ٣٦ - إقليم بنطش |
| ٣٧ - إيساوريا | ٣٨ - الدجلة | ٣٩ - نهر الفرات |

الرومانية وإحراق المدن ، وأخذ اسكتلنديو إيرلندة يلاحقون الساحل الغربى بالغارة والدمار ، وفى إحدى غاراتهم سيق باتريك أسيراً من مصب نهر السيفون فيما يرجح . واندفعت القبائل النيوتونية فى أودية الأنهار وعلى الطرق الرومانية شرقاً وجنوباً . ومنذ تلك اللحظة لم تعد تصل إلى العالم الرومانى عن بريطانيا سوى الشائعات والأساطير . إذ إن بروكوبيوس فى القرن التالى يعبدها بلاداً تكاد تمتلئ بالثعابين ، وجزيرة أشباح لا يقطنها إلا الموتى، تنقل إليها الأرواح عبر البحر من بريتانى .

وكانت حدود الراين أيضاً على شفا الأنهار . وكان جوليان (يوليانوس) أعاد إليها النظام فى (٣٥٧) بسلسلة من الحملات الباهرة على الفرنجة والألمان المهاجرين ، وواصل فالنتينيان الكفاح ونصّب البورجنديين الوافدين حديثاً لمقاتلة الألمان ، وتمكن استيليكو فى (٣٩٥) من توكيد الدفاع عن بلاد الغالة ، فضلاً عن بريطانيا - مدة عشر سنوات أخرى . ولكن النواحي الشرقية اصطبغت بصباغ جرمانى ثقيل . فقامت مستوطنات لأقوام من اليتوتون على جانبي الراين ، وكان الدفاع عن تلك المنطقة موكلاً إلى الجند المرتزقة أو الفرق المساعدة (Foederati) وهم القبائل المتبربرة الذين كانوا يظهرون فى كل يوم استعداداً لقتال أبناء قرابتهم أو منافسيهم لقاء أعطيات الرومان أو ما يقطعهم الرومان من أرض ، ثم ينضمون فى اليوم التالى إلى أعدائهم بالأمس ، أملاً فى ابتزاز السلب ، أو الحصول من الإمبراطورية على شروط أفضل . وعندما استدعى معظم حرس الحدود للدفاع عن إيطاليا من الأريك ، استطاعت قبائل بأكملها عبور النهر وقد تجمد ماؤه فى ليل بهم ، وأن تدخل الأراضى الرومانية دون التعرض لشيء من العقاب . وعلى هذا النحو عبر الراين حشد (٣ - المصور)

مختلط من الواندال والسويف والألان حوالى (٤٠٦) ، فقصوا على مقاومة الفرنجة ، وشرعوا ينجون لو فى أرجاء بلاد الغالة ردها من الزمان ، وهم ينهبون معظم المدن ويتسببون فى الفوضى والمجاعة ، حتى تمكنوا فى النهاية فى (٤٠٨) من عبور جبال البرانس ، واستقروا بأسبانيا ، محدثين بها نتائج مماثلة لتى أحدثوها بغيرها وإن كانت هنا أدوم . ومن الجلى أن قبضة الإمبراطورية على ممتلكاتها وراء جبال الألب أخذت تهن وتقلقل . فإن شئنا سوق دليل آخر صح أن نلتسمه فيما فعله قسطنطين المغتصب القادم من بريطانيا ، إذ تمكن من أن يطلق على نفسه اسم سيد بلاد الغالة مدة أربع سنوات ، لمجرد تجنبه لقاء البرابرة المتجولين . وإن حملات قسطنطين وغيره من زعماء الرومان على قواد هونوريوس لتتسم بحجى من الزيف واللاحقية عندما نتبين أنه فيما عدا ولاية بروفانس والركن الشمالى الشرقى من أسبانيا ، كانت هذه الولايات تنقل فعلا واسماً إلى قبضة البرابرة .

ومع ذلك فإن هذه الحقائق لم تنضح فى (٣٩٥)^(١) ؛ إذ إن الضغط الرئيسى كان مركزاً فيما يبدو على منطقة الدانوب . إذ حدث فى (٣٧٦) أن القوط وقد دفعهم إلى الأمام غزو الهون ، تدفقوا على الحدود ، وعاثوا فساداً بمقدونيا ، وتمكنوا فى (٣٧٨) فى معركة أدرنة السكارثة من إنزال الهزيمة بجيش رومانى وقتل الإمبراطور . ومن الجلى أنهم قد وصلوا فى زحفهم هذا إلى أسوار القسطنطينية نفسها ، ومع أن ثيودوسيوس تمكن من الاتفاق معهم ، فإنهم ظلوا يهددون العاصمة . إذ إن أعداداً غفيرة منهم كانت

(١) إن كلوديانوس وهو شاعر معاصر يتغنى بثقة تامه بما أحرزه استيليكو والجيش الرومانية ببريطانيا وغالة من انتصارت باهرة ، مقارنة إياها بما أنزله ماريوس بقبائل الكيمبرى والتوتون من مزارعهم ولسكن لا يهرب عن الباب أنه كان شاعر القصر وداعية ماهراً ذكياً .

تعمل في الجيش الروماني ، بينما نزلت جموع المحالفين منهم بداخل الإمبراطورية بوصفهم وحدات وطنية تطالب بإعانات ضخمة .

ولكن القسطنطينية نجت من الهلكة . ولم يكن ذلك إلا لشيء واحد كما سنرى بعد : هو أن القوط حولوا وجهتهم نحو الغرب ؛ ولسبب آخر هو أن الحدود الشرقية خيم عليها الهدوء طوال القرن الخامس بأكمله . وقد اقتصت أرمينية في (٣٨٧) بعد أن ظلت « دولة حاجزة » بين روما وفارس منذ عهد أوغسطس ، فانهى بذلك النزاع الطويل على اكتساب « مناطق النفوذ » - وإلى أبعد من ذلك جنوباً ، أى بأرض الفرات ، ظل خطر الدفاع هادئاً لا يكدره مكدر ، وذلك لما أهدق بفارس من تهديد أعداء آخر بمنطقة نهر آموداريا ؛ كما أن سلسلة القلاع الرومانية كانت كافية لردع شرادم الأعراب المتجولة بتلك المنطقة .

وحافظت الدولة في إفريقية أيضاً على حدود الصحراء من البدو المغيرون ، على الرغم من تضاؤل كفايتها ؛ وشاهد ذلك أن سينيزيوس (Synesius) أسقف برقة (Cyrene) وجد القوات النظامية أجبن من الجند المحلية التي كان يجمعها من جيرانه ويقودها بنفسه . فإذا انتقلنا إلى الغرب ، وجدنا السكان المغاربة واليونانيين^(١) قد اغتنموا فرصة الاضطرابات^(٢) الاجتماعية والدينية للتخلص من نفوذ الرومان .

(١) المغاربة (Moors) واليونانيون : هم الفينيقيون وأحفادهم النازلون بعمال إفريقية (المترجم)

(٢) انظر ص ٢٧ الفصل ثلثه بعنوان الهون ومناعهم .

الجيش

وكان الجيش في قريب من ٤٠٠ للميلاد مرآة تعكس الأحوال العامة التي تشيع في الإمبراطورية . فقد كان معروفاً رسمياً أن البنيان الأساسي لإصلاحات دقلديانوس وقسطنطين كان لا يزال قائماً . وكان الغرض من هذه الإصلاحات هو أولاً - تشجيع الكفاية بفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، وثانياً المحافظة على الحدود بإقامة خط متصل من المعسكرات ، على حين أن زهرة الجيش (بغض النظر عن فرق الجند الإقليميين على اختلاف أنواعهم) كانت تؤلف قوة متحركة تستطيع أن تبادر بالتحرك إلى أية نقطة تتعرض للغزو^(١) . وتزايد إبان القرن الرابع الفرق في النوع بين جيش الميدان (Comitatus) وقوات الحدود أو الثغور (Limitanei) : فإن الأخيرين ، وكانوا موزعين على معسكرات دائمة أو مستوطنات صغيرة ، ألحقت بها بعض الأرض الزراعية ، ما لبثوا أن أصبحوا تقريباً جند رديف من الفلاحين : وكثيراً ما كانوا أقواماً أشبه بالبرابرة بسبب تزاوجهم المخلط بالأجانب والتسرب المستمر بين الناس على امتداد مناطق الحدود ؛ ولا يختلفون كثيراً عن سكان المستوطنات التامة البربرية (Lacti or Gentiles) الذين سمح لهم بالاستقرار في نواح مختلفة داخل الإمبراطورية ، مقابل قدر معلوم يؤديونه من الخدمة العسكرية . وكانوا ، على أحسن الأوضاع ، يعدون جنداً من الدرجة الثانية ، ونقيضاً غير كريم للجند النظاميين .

وتبين قوائم الجيش زيادة كبيرة في عدد الكتائب ؛ ولكننا نستنتج

(١) انظر التذييل ١

نقلنا عن مصادر أخرى أن الكثير من هذه الكتابات لم تكن موجودة إلا على الورق فقط ، أو كانت مجرد فصائل من نفس الكتبية . إذ الواقع أنه في تلك الأيام صار العدد المألوف للوحدة الفعالة ألف رجل لا ستة آلاف . ولم بعد يقودها آننذ وال (Prefect) بل تربيون . وكثيراً ما كانت تستخدم وحدات أصغر من أنواع مختلفة هي الفصائل (Nu meri) تتكون من حوالى خمسمائة رجل . ويبدو أن الأعداد الفعلية لقوات الميدان الرومانية في أثناء القرن الخامس كانت بالغة القلة ، وكانت تزداد عادة باستئجار الحلفاء المتبربرين ، وهم قوم لا يعتمد عليهم في الغالب كما أنهم يتقاضون دائماً أجوراً باهظة .

غلبة البرابرة على الجيش

وبلغ من تغير الجندي الروماني في ذلك الزمان أن زميله من جند الإمبراطورية الأولى لم يكن ليستطيع تمييزه كجندي ، إذ لم يكن يرتدى الزرد سوى الخيالة وقلة من المشاة . وحل محل النرس المثلث القديم ، درق مستدير مجوف ، غالباً ما كان يحمل شارة الفرقة . وكان السيف القصير (Gladius) المستخدم في الطعن لا يزال يستخدم ، ولكن النصل العريض (Spatha) الطويل ، وهو من أسلحة البرابرة ، أخذ يحل محله . ونذر الآن حمل حربة الرمي الثقيلة (Pilum) البيلم فلم تعد تستخدم إلا عند الجند البرابرة . وكانت دبابيس^(١) (Pikes) القرون الوسطى آخذة في الشبوع ، وأصبح جميع الرماة في القرن التالي يحملون المزاريق . ونقل القوس عن البارثيين ، ولم ينقض طويل زمن حتى صار سلاحاً للفارس والراجل على السواء . وحدث

(١) الدبوس آلة حربية تشبه الحربة طويلة الفأء مدببة الظبية . (المترجم)

تقدم فعلى فى الخيالة فى أثناء القرن الرابع : إذ أظهرت أهميتها (أى الخيالة) كارثة أدرة ، وظهرت الفرسان المدرعة للقرون الوسطى فى صورة الخيالة الثقيلة (Cataphractarii) لأول مرة ، وما لبثت منذ تلك اللحظة حتى صارت القوة الفاصلة فى المعارك . وتسرب إلى الجيش كثير من الكلمات والعادات الألمانية فأنا نسمع اسم الدرانجوس (Drungus) ، وهو نوع من تشكيلات الجيش ؛ على حين أن صيحة الباريتوس (Barritus) وهى صيحة حرب كانت تبدأ بهمة خافتة وتنتهى بزئير رهيب ، قد انتقلت آنئذ من الجند المساعدة (Auxilia) الألمانية إلى صفوف الجيش بأكملها .

ومما يلفت النظر إلى المظهر غير الرومانى الذى اتسمت به القوات الإمبراطورية فى تلك الفترة ، - علم الكتاب الجديدة المنقول فيما يرجع عن كتاب الفرقة الرومانية الكاملة القديمة ، التى تمكّد الكتاب الجديدة تضارعها فى العدد . وكان العلم على هيئة أفعوان (Draco) - وهو شارة لعلها اقتبست عن الداكين (Dacians) ، وهو مخلوق ضخم بربرى الشكل يمتلىء بالهواء وينبث على رأس ربح .

وهذه الشارات البربرية ليست إلا أعراضاً لتغير بالغ العمق . فإنّ الجندى الرومانى كان يحارب آنذاك على قدم المساواة مع الهمجى المتبربر . وكان فى الأيام السالفة يقل عن المتبربر عدداً وقوة احتمال ؛ ولكن كانت له وقتذاك الغلبة على المتبربر بفضل تدريبه ونظامه الكامل وتفوقه فى السلاح ووسائل المواصلات . فأما الآن فإنّ ذلك كله قد ذهب . إذ إن التكتيك المعقد لم يعد فى مكنة الرومان ؛ بل إن المعسكرات العظيمة التى كان الفيلىق الرومانى يقيمها كل ليلة - وبها كان يزيد روحه المعنوية قوة وحركته سرعة - لم تعد مأوفة

فى ذلك الحين . وكان كثير من البرابرة مزودين بسلاح أفضل ، بل لقد خدم بعضهم فى القوات الرومانية فترة من الزمن . هذا إلى أن الجهاز الإمبراطورى كان يتداعى . وكانت إدارة المهمات الحربية مقلقة الأسس ، والأعطيات مضطربة ، وكان الجو مفعما بالاضطراب وسوء النظام .

وهناك نتيجة ترتبت على ذلك ، هى نمو عدد الأتباع الشخصيين ؛ وأصبح القانون العوبة فى يد كبار الملاك يتناولونه بالعبث كيف يشاءون ، وصاروا يدفعون الأجور لاتباعهم ويسلحونهم ويطعمونهم . ونمت تلك العادة متأثرة فيما يحتمل بنظام حراس الأمراء أو الأتباع (Comitatus) الألمانى الذى يصفه تاكلتوس^(١) . لم يلبث نظام الأتباع أن أصبح معترفاً به فى عهد جستنيان ، يوم أصبح جميع القواد ، بل حتى الموظفين المدنيين والأفراد العاديين يتخذون من البقلار أتباعاً لهم (Buccellarii)^(٢) . وبلغ عددهم عند بليساريوس (Belisarius) مثلاً ٧٠٠٠ رجل ، ولكن كانت تلك حالة استثنائية . إذ لم يكن لدى نارسيس (Narses) سوى أربعائة .

كانت الكتائب الرومانية مكونة فى الأصل من الإيطاليين ؛ ثم استدعت الحال فيما بعد اللجوء إلى أبناء الأقاليم ، حتى ترمى الأمر إلى أن أصبحت أقل أجزاء الإمبراطورية مدنية مثل بلاد الغالة وإليريا وإيسوريا

(١) انظر من الفصل الثانى فى عنوان ألمانيا الباكورة وتاكلتوس : (٥٥ ؟ - ١٢٠ ؟) مؤرخ رومانى ذائع الصيت [المترجم] .

(٢) يظهر أن كلمة البوقلار أو البوكلارية مشتقة من لفظ Buccella ، وهو ضرب من البسكويت ؛ ولعل ذلك يرجع إلى أنهم كانوا يحصلون على طعام أفضل من لوجيات الحفنة التى كان يعطاها الجنود العاديون .

(Isauria) — مناطق التجنيد الرئيسية في الدولة . أجل إن التجنيد الإجبارى كان لا يزال موجوداً في الإمبراطورية — إذ كان يتحتم على الملاك تقديم عدد معين من الرجال ؛ ولكن نظراً لأنهم كانوا يرسلون أقل الرجال صلاحية أو يستعاضون عن رجالهم بما يؤدونه من الأموال ، فإن هذا الإجراء كاد يبطل . وعندئذ صارت المسادة التى يأتلف منها الجيش مكونة من أسرى المتبريرين والقبائل التى خضعت بشروط ، والشعوب التى أنزلت على الحدود أو بالقرب منها أو الجند المتبريرين المتحالفين (Foederati) الأحرار وما إلى ذلك . وكلما كان الرجل متبريراً أكثر ، كان جندياً أفضل . وبلغت الأمور نقطة التحول عند نهاية القرن الرابع . إذ سمح ثيودوسيوس بأن يدخل البلاد عدد جارف من القوط ، فلم يعد من الممكن بعد ذلك أن ينالوا أى نصيب من العلم — بالطرائق الرومانية ، ولو كان ذلك عن طريق توزيعهم بين مختلف الوحدات .

أما القيادات العليا ، فقد تولى الجرمان نصفها على الأقل منذ عهد جوليان ، فضلاً عن أن كثيراً من الباقين كانوا من أرومة بربرية . وكان القوم على الدوام يستخدمون اللغة الدارجة لملاءمتها لحقائق الموقف . فكانت الخزانة العسكرية تسمى بالخزانة البربرية (Fiscus baricus) . ومما له دلالة ومغزاه أن أما مصرية تذكر فى التماسها تسريح ولدها أنه « انطلق مع البرابرة » وهى تعنى بذلك أنه قد انخرط فى الكتائب الرومانية .

الإمبراطور

إن مركز الإمبراطور فى ذلك الأوان كان — بمعنى ما — النتيجة المنطقية لما عمله أو غسّطس . فإن ما يسمونه باسم «الحكم الثنائى» (Diarchy) أو اقتسام سلطة السيادة العليا بين الإمبراطور (Principes) ومجلس الشيوخ،

كان منذ البداية أقصوصة إلى حد كبير ، وصرف عنه النظر قبل عهد دقلديانوس ، ومنذ تلك اللحظة أصبح الإمبراطور هو المتحكم في كل المجالات ، وبذا يمكن القول بأن حكومة الإمبراطورية كانت حتى سقوطها في ١٤٥٣ حكومة استبدادية مطلقة (أوتوقراطية) . ولكنها مع ذلك كما قال مومسن^(١) : « حكومة مطلقة يلطف من عنفوانها الحق المشروع في الثورة » . وكان الإمبراطور يخشى على الدوام ظهور منافس له . وبناء على النظرية الأصلية التي رسمها أوغسطس ، كان مجلس الشيوخ والشعب ينتخبان الإمبراطور ويوليانه مهام منصبه . ثم تعدل هذا الوضع عملياً بمناداة السناتو والجيش بالإمبراطور ، وإن بقي المبدأ الأصلي قائماً في بيزنطة على صورة احتفال يقام بحلبة السباق (Hippodrome) على أعين العالم كافة . وإن استطاع منافس أن ينصبه جزء من الجيش إمبراطوراً ، صار له « وضع دستوري فرضي ، إما أن يثبتته الاحتفال وإما أن يلغيه » (فيما يقول بيوري) ، فإن أخفق فيما قام به من انقلاب (Coup d' etat) عُدد ثائراً متمرداً . وإن نجح كان الإمبراطور الشرعي .

بيد أن هذا لم يكن الإجراء العادي الذي يتم عند وفاة أحد الأباطرة . إذ كان لكل واحد من هؤلاء الحكام شريك يصغره موجود عند موته ، وفي تلك الحالة لم يكن هناك أى انتخاب . وهذا المبدأ الذي عملت به الأسر المالكة والذي تجلى ظاهراً في سياسة أوغسطس ، أصبح عرفاً معترفاً به :

(١) هو ثيودور مومسن (Mommsen) (١٨١٧ — ١٩٠٣) : وهو عالم ألماني بالعلوم الكلاسيكية ، بحث بايطاليا في القوش الرومانية . وتولى أستاذية التاريخ القديم بجامعة برلين منذ (١٨٥٧) وله عدة مؤلفات عظيمة . [مترجم]

إذا كان للإمبراطور « الحق في نقل المنصب الإمبراطوري إلى الغير » . وعندئذ يكون شريكه أو شركاؤه خاضعين له ، وليس للإمبراطورية إلا حاكم أعلى واحد فقط . (وعلى هذا الاعتبار ، تكون المدة من دقلديانوس إلى يوليوس نيبوس (المتوفى ٤٨٠) حالة استثنائية)^(١) . وهكذا بقيت ولاية العرش الانتخابية قائمة على الدوام من حيث المبدأ ، ولم يكن السناتوبلعب في ذلك دوراً هاماً إلا في حالات استثنائية فقط .

ونمة قيود أخرى كانت مفروضة على سلطة الإمبراطور . فعلى الرغم من أن الإمبراطور كان من الناحية النظرية فوق القانون ، إلا أنه كان عليه التزام غير مكتوب بأن يحافظ على الأنظمة والقوانين الرومانية . وينبغي أن يكون مسيحياً أرثوذكسياً : وقد تم انتزاع هذا الالتزام حينما تولى العرش الإمبراطور ناستوسيسوس (٤٩١) ، وكان معروفاً بآرائه الإلحادية ، ثم جرى العرف فيما عقب ذلك من أيام بأن يحلف الإمبراطور يميناً عند تنويجه . بيد أن الكنيسة لم تكن تواصل على الدوام ادعاءها السيادة على الدولة ، كما حدث في الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ومن ثم لم تكن بيزنطة في حاجة إلى أمثال دانتى أو أوكام لصياغة النظريات المحسكة في هذا الصدد ، إذ لم تكن الكنيسة هنا إلا إدارة من إدارات الدولة ؛ وكان الإمبراطور رأس الكنيسة ، وكان البطريرك وزيره في الشئون الدينية ، والحاكم يلقى هنا سلطته من ربه مباشرة ، ومع أنه لم يكن يعبد شأنه في العهود الوثنية ، إلا أن قصره ومخدعه أسبغت عليهما صفة القداسة في المراسم الرسمية . وربما أمكن تلخيص المؤثر الفارسي في هذا الأمر؛ ومن المحقق أنه واضح في تفاصيل مراسيمية

(١) انظر ص (١٤) .

أخرى . وكان التاج وهو شريط أبيض مطرز باللؤلؤ ، قد أصبح أهم شارات الملك شأننا ؛ كما كانت الأحذية الأرجوانية أيضاً جزءاً من ثياب الإمبراطور . وكان الخصيان والنساء يسيطرون على بلاط أركاديوس وهونوريوس . وكان كبير الأمناء واحداً من أبرز أربعة من الموظفين ذوى الأهمية ، وهو (Peaedositus Sacri Cubiculi) من الخصيان . وكان الإمبراطور يحاط بسيج من آداب اللياقة والمراسم (كان التعبير عنه يتطلب حشداً ضخماً من رجال البلاط والخدم) كما كان محوطاً بسيج يبعده عن كل اتصال بالحياة الواقعية .

ومن المفارقات المعجبية أن المركزية الإدارية بلغت في الحين نفسه أقصى ذروتها . فكان الإمبراطور يمسك بيده خيوط الحكم جميعاً ؛ فهو المصدر الوحيد للقانون ، وفقهاؤه هم الذين يفسرونه ، كما أن مجلسه كان يتكون من رؤساء الإدارات الحكومية الكبرى في الدولة ولم يعد في الإمكان التفريق بين إيرادات الدولة ودخله الخاص : وكان الإمبراطور يستخدم هيئة ضخمة من العملاء الخصوصيين (Curiosi or Agentsimrebus) وهم مكلفون بالبحث في كل نقطة من نقاط الإدارة وتقديم التقارير إليه رأساً . وإن مجموعة قوانين ثيودوسيوس التي نحن مدينون لها بالشيء الكثير مما لدينا من معلومات عن ذلك العصر ، لتحفل بالأوامر الإمبراطورية التي يقصد بها إلى معالجة الظلم وإساءة التصرف . ومع ذلك فإن مجرد تكرار تلك الأوامر نفسه يدل على الفشل . والحق أن الجهاز الحكومي بلغ من الفخامة والتعقيد مبلغاً عطل نشاط كل فرد . وكان من المحال تغيير حركة أصغر ترس في تلك الدواليب المتداخلة بعضها في بعض . هذا إلى أن الجهاز نفسه كانت تهدده قوى بالغة الضخامة ؛ إذ صار وقف زحف البرابرة على الدولة في الاعتبار الأول . وكان رؤساء الجند

(Magistri militum) أصحاب النفوذ والسلطة الحقيقية في أثناء ذلك القرن ، كما أن أى إمبراطور غير مبال للحرب لا مفر من أن يُجعل في المرتبة الثانية بعد قائد الجيش .

الهيئة السناتورية

وقد انحدرت منزلة سناتو روما فأصبح مجلس بلدية ، يرأسه والى المدينة (Prefect) وهو المهيمن على الخزانة (Aerarium) ، التى لم تعد منذ زمن بعيد خزانة الدولة ، وأصبح الآن يشرف على سقايات الماء بالمدينة وتزويدها بالمؤن . وتحلى انحدار مكانة السناتو بعد انتقال البلاط الإمبراطورى إلى ميلانو أولاً ثم إلى رافنا فى النهاية . فالهيئة التى كانت تدير شئون الإمبراطورية لم تعد تحفل إلا بالجامعة وبسجلات العاصمة . ومع ذلك فإنه لم يبرح من الناحية النظرية محتفظاً بسلطاته الأولى ، وربما أظهر فى أيام الأزمات أنه عامل حاسم فى الأمور . فأما بيزنطة ، فنظراً لشدة نزعتها المركزية ، لم يعد ثمة فارق بين السناتو ومجلس الإمبراطور (Consistorium) . وظلت الوظائف القديمة : وظائف القنصل والبرايتور (Praetor) موجودة لم تمنحها يد الزمن ، وتعتبر أن أعلى المناصب التى يتطاع إليها نبلاء العاصمة أو الأقاليم . وعلى الرغم من أن أعباء هذين المنصبين لم تعد تتجاوز ما يعرض على السكان من الألعاب أو الحفلات .

وكان مجلس الشيوخ (Senatus) أو السناتو نفسه يضم نسبة ضئيلة جداً من رجال طبقة أعضاء السناتو (Ordo Senatorius) ، وهى الطبقة الكبيرة من الملاك الأغنياء الذين كان لهم بكل أرجاء الإمبراطورية سلطة ونفوذ عظيمان

رغم أن هذا النفوذ لم يكن إلى حد كبير يستند إلى صفة رسمية لهم ، فما لم يكن الرجل من هؤلاء منتسباً إلى تلك الطبقة بحكم مولده ، فإنه كان ينتظم فيها بأمر خاص من الإمبراطور أو السناتو ، أو حتى أصبح عضواً بإحدى طبقات الأشراف الثلاث : وهى الوجهاء ، والناهبون ، والصفوة النبلاء (Spectabilis, Illustris, Clarissimus) . وكان لكل منصب رسمى هام فى الإمبراطورية لقب مرتبط به أو يصح الحصول عليه عند التقاعد . وكانت هذه الألقاب تتغير باستمرار ، وتزداد عدداً على الدوام فى أثناء القرنين الرابع والخامس . ولم تكن الألقاب ألقاب تكريم وشرف وحسب ، بل كانت تسوغ لحاملها أنواعاً مختلفة من الإعفاء من الضرائب ، ومن ثم كانت موضع التقدير والاهتمام . وبهذه الطريقة كانت طبقات بأكملها من الموظفين تنتقل آلياً إلى عقد رجال السناتو . ومن العسير أن نصف بالتفصيل سلم الوظائف . على أنه كان يلى الطبقات الثلاث سألقة الذكر طبقة الأكمل (Perfectissimi) وهى طبقة تتألف من صفار الموظفين ومن رؤساء هيئات معينة ، وكانت فى كثير من الأحيان معراجاً يرقى به إلى طبقة السناتو . وفيما يلى هذه الطبقة ، انتظم السكان فى أقسام تقوم على الحرف والأعمال كما سنرى بعد .

وبعد حدوث الفوضى الجائحة التى رانت على القرن الثالث ، أصبح الاستقرار الشغل الشاغل والهدف المرموق ، وتم بلوغ ذلك بإقدام الحكومة بعزم قوى على توطيد النظام الإدارى وتبسيطه . وقد اشتد غلاء المواد الغذائية : فحاول دقلديانوس ضبطه بإصدار الأوامر بتنفيذ لأئحة عملة لأعلى الأسعار ، وأدت المحاولة إلى تقديم كثير من الناس إلى المحاكمة ، ولكنها لم تلق أى نجاح يذكر ، وخفضت قيمة العملة وأصبح الذهب والفضة نادرين ؛ وأدخل قسطنطين عملة الصولدى (Solidus) الذهبى ، التى لبثت عدة قرون العملة

المعيارية للدولة ، على الرغم من أن وحدة القيم الحقيقية هي وزن الرطل من الذهب . وكان أساس تقدير الضرائب إبان الإمبراطورية الأولى هو العرف السائد بمختلف النواحي ؛ وهو نظام شديد التعقيد ، إذ إن معظم الإيرادات كان يحصل من الضرائب غير المباشرة ومن إنتاج المزارع الإمبراطورية الكبرى . على أن أفدح الأعباء هو تلك الضرائب الاستثنائية التي كانت تفرض على الناس نقداً وعيناً لتزويد الجيوش الرومانية والموظفين المسافرين بالميرة ووسائل النقل . وتزايدت هذه الفرائض المحتمة زيادة هائلة في أثناء اضطرابات القرن الثالث يوم كاد كل إقليم يقيم لنفسه إمبراطوراً أو مدعياً للعرش ، وكادت التجارة المنتظمة تكون مستحيلة . ولكن دقلديانوس بدلاً من أن يعود إلى النظام القديم قرر أن يواصل العمل بهذه الإجراءات ، وذلك في ضريبة الميرة (Annona) ، كما قرر أن يستعيض عن نظام التقدير القديم بطريقة بالغة البساطة والسذاجة في الحساب وهي طريقة الربط (Iugatio) ، وهي طريقة لا تحفل إلا قليلاً بالخصائص^(١) المحلية . إذ لا بد من إتخاذ الإمبراطورية على حساب شعبها . ولم يكن في الإمكان إحراز هذا الإيقاظ إلا بتحويل الأمة كلها إلى آلة مقننة لإنتاج النقود وضروريات الحياة ، وذلك بقصد مواجهة النقص المتواصل في الإيرادات والتجارة وعدد السكان بل حتى في الابتكار والمبادأة .

وكان الفلاحون قاعدة الدولة التي عليها تقوم . ومن ثم فقد وجب قهرهم ووجبت مع ذلك حمايتهم . ولم يعد معظم الفلاحين الصغار (Coloni) من الملاك ؛ إذ إنهم أصبحوا بحكم العقود أو التثريعات - من ناحية ، ولكن

(١) انظر التذييل ١

بالأكثر بحكم الحاجة الاقتصادية من ناحية أخرى تفوق الأولى ، - مستأجرين في مزارع كبار الملاك . وقد انتقصت آنذاك حريتهم الشخصية ؛ فربطوا هم وأبناؤهم بالأرض ؛ وإن فكروا في الفرار والإبقاء^(١) وضعوا في الأغلال . ولكن ساداتهم (Patrohus) ينبغي ألا يسرفوا في تجريدهم من غلة الأرض دون ترك فائض لهم بما يفرضونه عليهم من إيجار فاحش ؛ ولا يجوز لهم أن ينقلوا الفلاح الصغير إلى مكان آخر إذا باع السيد الأرض التي يعمل عليها الفلاح . ثم صار الملاك آخر الأمر مسئولين عن جمع الضرائب التي يدفعها مستأجروهم وبذلك تم إخضاع صغار الفلاحين . فإنهم أصبحوا عند ذاك يؤلفون طبقة من أشباه الأحرار ، تقع في منتصف الطريق بين المواطنين الأحرار والأرقاء .

اضطراب شؤون الزراعة

ومما يشهد بالحالة المروسة التي بلغها الكساد الزراعي ، ويدل على أهميته لدى الإمبراطورية ، الإجراءات المتنوعة التي لجأت إليها الحكومة لتمنع الناس من التخلي عن زراعة الأرض ، فتقرر فرض إيجار اسمي على حيازة الأرض البور الموروثة التي يتمتع حائزها بزراعتها زيتوناً وكرماً (Emphyteusis) وهذا النوع من الحيازة هو المعروف بأرض الطعمة . وتحتم على مالكي المزارع الضخمة أن يضيفوا إلى أملاكهم قدرًا معلومًا من الأرض غير المزروعة ويؤدوا عنها ضريبة (Epibolé) . وهناك عدد من البرديات التي اكتشفت حديثاً بمصر ، توضح لنا وضوحاً لا لبس فيه المصاعب التي تنجم عن اتباع هذا النظام ،

(١) أبق اليد أبقاً وإباقاً : مرب

(المترجم)

الذى استمر معمولاً به إلى العصر البيزنطى ، فشكل من ظهرت عليه أمارات اليسار جعلت على كاهله قطع من هذه الأرض البور ، وأفضت المطالبات الرسمية المتواصلة بتقديم الإبل والأسلحة والقوارب والأرقاء ووسائل المواصلات الأخرى ، إلى القضاء على كل تجارة ، وتحول الآبقون إلى قطاع طرق ، وتركوا زملاءهم يؤدون الضرائب الفادحة ، وأخذت رمال الصحراء تطبق فملاً على حقول القمح وعرائس السكروم التى تركها أصحابها يباباً بلقماً .

وقام الفلاحون بشورات فى أصقاع مختلفة . فى غالة وأسبانيا أشبت عصائب الثائرين (Bagaudae) حروباً متقطعة فى أثناء القرنين الرابع والخامس ، وكانوا فى أحوال عديدة يقدمون العون للبرابرة . إذ إن سالفينان وهو قسيس فى جنوب غالة وصف هؤلاء الثائرين ، ويتحدث أيضاً عن رجال فروا إلى البرابرة للتخلص من جاني الضرائب . وثار الأرقاء فى بعض المناطق على أسيادهم ؛ ويروى بريسكوس^(١) الذى عاش فى منتصف القرن الخامس والذى أرسله الإمبراطور فى سفارة خاصة إلى أتيليا بمعسكره شمالى الدانوب ، أنه وجد تاجراً يونانياً يعيش بين ظهرائى الهون ، وأن التاجر أدلى إليه بأسباب مفصلة لإيثاره العيش فى ظل البربرية على خفض الحضارة . واشتد فى إفريقية بغض الفلاحين للدولة الذى كانت تزيد فى أواره المشاعر العنصرية المغربية والبونية (الفينيقية) ، ولم يلبث حتى ثار شرره ناراً ولهباً نتيجة للانشقاق الدونائى^(٢)

(١) بريسكوس (Priscus) عن تفاصيل رحلته الشائفة إلى معسكر أتيليا ، انظر المترجم المجلد الثانى من « معالم تاريخ الإنسانية » تأليف هـ. ج. ولز ص ٦٥٢ ط ٢ لجنة التأليف (المترجم)
(٢) الدونانيون : طائفة مسيحية قوية نشأت بشمال إفريقيا وخرجت على كنيسة القسطنطينية ثم انشقت على نفسها ولم تزل فى شقاق قروناً عدة حتى قضى عليها الفتح العربى فى القرن السابع (المترجم)

كما أن عصابات الجلادين^(١) وغيرهم من المتعصبين المتهوسين وهم المسمون (Circumcelliones) أحدثت من الاضطرابات ، ما مهد السبيل للغزاة الوندال. هذا وإن الازدهار الفجائي الذي أصابه الفن الكلتى ببريطانيا والأدب القبطى والسريانى بمصر وسورية ليشهد بأن الثقافات المكبوتة بمواطن أخرى كانت ترقب ضعف قبضة الحكم الرومانى لتواصل نشاطها . غير أن هذه الحركات كانت استثنائية . إذ إن التبلد كان الصفة الغالبة على الفلاح الذى لم يكن يتراءى له فيما يحيط به من آفاق أية بارقة تبشر بمآل أحسن ، والذي كان همه الوحيد منصرفاً إلى تجنب الهلاك جوعاً في سنته التالية .

وأخضعت التجارة والصناعة أيضاً للسيطرة الحكومية . وقد عرفت مصر في العهود الهلنستية هيئات مكونة من طوائف من أصحاب السفن والتجار تقوم في خدمة الدولة . حتى إذا جاء عهد كلوديوس كانت تلك الممارسة قد امتدت إلى جماعات أو نقابات (Collegia) أخرى من البحارة (Navicu Larii) والتجار (Mercatores) في الموانئ الإيطالية ؛ ومنذ عهد أورليان ، نالت نقابات جميع الحرف اعتراف الحكومة وحمايتها ورقابتها . على أن هذه الجماعات ، فيما عدا تجارة القوافل السورية لا تمت بأى شبه للشركات المعصرية ذات رأس المال المشترك ، وكل ما كانت تفعله أن تقيم لنفسها « شخصية قانونية » سهلة ومريحة عند التعامل مع الدولة . أما الصناعة طوال تلك الفترة فكانت أساساً في أيدي الأفراد .

ولعل نقابات البحارة أذيعها صينا ، وذلك امتنادا إلى كثير من النقوش،

(١) طائفة الجلادين : فئة دنيئة ظهرت في إيطاليا تؤمن بتيرية أجسادها وتمزيقها بالسياط .

(المترجم)

(٤ — المصور)

وربما أمكن اتخاذها مثالا . وقد طلب دقلديانوس منهم أن يشتركوا في نقل المواد الغذائية ، لا لسكان العاصمة فحسب ، بل للجيش أيضاً . وكانت ممتلكات هذه النقابات تعد رهينة لسلامة وصول الشحنات . وكان عليهم أن يسلكوا أقصر الطرق ، وألا يتوقفوا بمكان ما لم تقض عليهم بذلك ضرورة ماسة ، وكانت حرقهم وراثية . وكذلك أيضاً انتظم الخبازون وتجار لحم الخنزير وموردو الخشب لأفران الحمامات وحرف وصناعات أخرى بالعواصم والمدن الصغيرة في نقابات على نفس الأسس التي لم يكن يجوز لأحد الانسلاخ منها . وكانت ذخيرة الجيش ومعداته تنتجها مصانع للدولة يعمل بها عمال أرقاء كادحون مرهقون عملاً .

وصارت الإدارة المحلية وجباية الضرائب أيضاً جزءاً لا يتجزأ من الجهاز العظيم . كما أن أعضاء مجالس المدن (Curiales) المسؤولين عن الإدارة المحلية وجباية الضرائب ربما كانوا أكثر تعاسة من أية طبقة أخرى في المجتمع . وقد كانت الإمبراطورية تتألف (في ناحية واحدة فقط) من مجموعة ضخمة من البلديات تحتفظ بقدر كبير من الاستقلال . ولكن ذلك الاستقلال قد انتقص على عهد تراچان ، إذ تقرر إنفاذ مندوبين إمبراطوريين (Correctores Curatores) لتنظيم مالية بعض المدن ببلاد اليونان وآسيا الصغرى . وبنمو هذا الإجراء اضمحلت وطنية المدن والغيرة على استقلالها ، وأصبحت الأعمال الخيرية نادرة واستثنائية ؛ كما أن قيام المسيحية الذي أفضى إلى هدم معابد آلهة المدن (Polis) ، التي ظلت قروناً عديدة قبله وبؤرة لولاء المجتمعات وعبادتها ، عاون على القضاء على القوى التي حافظت على حياة دولة المدينة (City-state) القديمة ، ولكن الحاجة إلى الحكم المحلي ظلت قائمة ؛ ومن ثم

بات من الضروري إجبار أعضاء مجالس المدن (Curiales) ، وهم الموسرون من أهل المدن وأصحاب الأملاك الذين يصح انتخابهم أعضاء بمجلس سناتو المدينة أو لتولى الوظائف التنفيذية ، على مواصلة القيام بالتكاليف (Munera) المنوطة بهم كالتقضاء فى المسائل الطنيفة والانتدابات لبعض المهام وخص المباني وخدمة البريد والنقل ، وجمع الضرائب إلى غير ذلك ، وهى أعباء لا يتقاضون عنها أية مرتبات. وقد أقيم تمييز رسمى بين التكاليف (Munera) والتشريف (Honores) ، إذ كان المصطلح الثانى يطلق على الوظائف التى هى فى حد ذاتها مكافأة مشتهة لشرف قدرها . ومما له دلالة على حالة الشعور العام أن ذلك الفرق لم يعد قائماً .

وكان من أشد الأعمال وطأة على الناس تقدير الضرائب الإمبراطورية أو جبايتها . وأعضاء مجالس المدن (أو مندوبو البلديات) هم المسئولون شخصياً عن هذه الأعمال ، وذلك بينما طلبات الخزنة الإمبراطورية فى ازدياد مستمر . وكانت توضع فى طريقهم كل ألوان العقبات . فإن كبار الملاك كانوا يرفضون الإدلاء بأية معلومات ، بل كانوا يسلحون أتباعهم لى يطاردوا جاني الضرائب . وقد تعرض طبقة أعضاء مجالس المدن بأسرها للدمار ، نتيجة لرداءة المحصول أو غارة جيش مغير ، وذلك لأنه لا بد لهم من تسديد النقص من جيوبهم الخاصة . ومما كان يزيد فى مرارة شعور الكراهية بين المدينة والريف ، ما انساق إليه أعضاء مجالس المدن مرغنين على اللجوء إلى الرشوة والابتزاز .

اضمحلال الطبقات الوسطى

ولو تأملنا على مر العصور الأوامر الصادرة من عهد قسطنطين إلى ماچوريان وهى التى تتضمنها مجموعة قوانين جستنيان ، لأمكننا أن نتعقب من خلال مائة وخمسين عاماً صدر فيها ١٩٢ مرسوماً ، التدمير البطيء الذى أنزل بالطبقات الوسطى . فإن محاولاتهم اليائسة للوصول إلى طبقة رجال السناتو والاستمتاع بما لتلك الطبقة من مكانة وحصانة ، تُكبح كبحاً تتزايد شدته على كرا الأعوام — إذ تقفل دونهم أبواب الجيش والكنيسة والخدمة المدنية . وتصبح العضوية فى طبقة أعضاء مجالس المدن (مندوبى البلديات) وراثية ؛ ولكنها من ناحية أخرى تمجد باللقاب الزنانة : فهى تسمى آونة «بالسناتور الأصفر» وآونة «بالمكانة الرفيعة» . وقد تقرر منع الأعضاء من السفر إلى الخارج أو السكنى فى الريف ، «إذ ينبغي لهم أن يظلوا بين أحضان مسقط رأسهم ، طبقاً لمقتضيات الروابط المقدسة المقدرة عليهم ، ولأنهم يحرسون السر الأبدى الذى لا يستطيعون التخلي عنه إلا بالتخلي عن التقوى.» وهذا مثال طيب على لفة القانون وبيانه وعلى إنكاره التام لكل حرية شخصية . وتشهد مراسيم أخرى بمزيد من القيود ، وتوقف كل محاولة للهرب . ومن ثم صار الأعضاء (المندوبون) بمصر والشرق يفرون إلى صوامع النساك بالصحراء ؛ ولكنهم كانوا فى البلاد الأخرى يلتصقون الانضمام إلى نقابات أخرى أشد تواضعاً ، أو يضعون أنفسهم تحت رعاية مالك أرض قوى ، وكان كثير من صفار الملاك يفارقون مزارعهم خفية تحت ضغط الديون ، وينضمون إلى صفوف الفلاحين الصفار (Coloni) .

حياة الطبقات العليا

وعلى النقيض التام لهذه الأحوال المتعسة تنهض الحياة المترفة التي نجدها في الطبقات العليا . وقد زادت دخولهم في كثير من الحالات ، على حين تناقصت إيرادات الخزانة الإمبراطورية . كانوا يعيشون آمنين في معاقلمهم الريفية ، ومن ثم كانوا يتحدون جاني الضرائب ويؤلفون هيئة ضخمة من «الماسونية» المتكثلة المسكونة من المحافظين (الحكام) والموظفين ، ترتبط فيما بينها بأواصر الدم والطبقة ببقية القضاء على أهداف العدالة ومحو أثر كل مرسوم إصلاحى . ويتبدى فيهم خليط عجيب يجمع بين خصائص العصور القديمة والوسطى . ويحيط بالأسر الكبيرة في تلك الفترة جو إقطاعي واضح الشدى والعالم — ومثال ذلك أسرة أنيكي (Anicii) في روما ، وبيت آبيوت بمصر وأرستقراطية جنوب فرنسا المتشابكة بروابط الصهر والقربى ، بما لها من الأملاك الضخمة المترامية التي أشبهت الممالك الصغيرة ، وقيامها بشئون القضاء قيام السادة المنصرفين ومالها من فصائل من الرأكة الأتباع . وتتجلى في الفسيفساء المنقولة من أرضية الفيلات الأفريقية صور ومبان تشبه القلاع أو البيوت الريفية المحصنة ؛ وفيها يقدم موالى الأرض خدماتهم أو يدفعون دفعات عينية؛ ويمارس القوم ضرباً من «الاقتصاد» يقوم على الاكتفاء الذاتى ، ويواجهون جميع مطالب الحياة بالصناعة المحلية^(١) . وفي تلك الفسيفساء يظهر اللورد ورفاقه متمطين جيادهم في أثناء خروجهم للصيد أو الاحتفاء برجال العلم . ويعطينا أوسونيوس وغيره صورة مماثلة للأحوال القائمة بجنوب فرنسا . ومنها يتبين

(١) يمكن هنا مقارنة هذا الوصف بالقبلا المبنية في تشدورت بحال كوتس وللس (القرن الرابع) بما فيها من مكان للصباغة يثير الاهتمام . وبدل حجمها على أنه من المحتمل أن المقصود منها كان خدمة حاجات الحى .

أن أيام حياة المدن أخذت تنقضى . فإن المدن الرجعية القديمة ذات الشكل الكلاسيكي غير المسورة ، بما احتضنت من حمامات ومعابد وسقائف معمدة وأرياض (ضواحي) حافلة بالفيلات والقبور لم تلبث حتى صارت مكتظة وأحاطت بها الأسوار والأبراج التي بادر القوم إلى تشييدها معاجلين بما انتزعوه من شواهد القبور ، ومن الكتل الحجرية التي أخذوها من بعض المباني العامة . وباضمحلال التجارة انتقل الترف إلى الريف . فزخرت السبل بقطاع الطرق ، وتوقفت الطرق التجارية العظيمة الممتدة بين الولايات عن اجتلاب الخزف أو المصنوعات المعدنية إلى دار الفلاح أو الصانع المحترف (Artisan) . وأخذت حياة القرية تنمو حول الدار الريفية (Manor) للشريف : وإن كثيراً من الدساكر الفرنسية القائمة اليوم اتخذت اسمها من صاحب الأرض الروماني الأصل الذي كان يعيش في مزرعته في ذلك الأوان والذي لم يكن يحضر إلى المدينة فيما يرجح إلا لقضاء عيد الفصح أو من أجل قضية هامة أمام دور القضاء . على أن القرن التالي هو الذي شهد التطور الكامل لهذه العملية . وعند نهاية القرن الرابع كانت التجارة المنقولة بحراً لا تزال ضخمة بالغة الأهمية . ولم تبرح أجزاء كثيرة من الإمبراطورية تنهأ بالرغد واليسار ؛ إذ إن الحياة الحضرية المشرقة بمدن مثل أنطاكية والإسكندرية كانت لا تزال مستمرة ، ومع أن الزراعة انحطت منذ زمن بعيد بكل من بلاد اليونان وإيطاليا ، إلا أن قدرة الأرض على الإنتاج لم يصعبها هبوط عام . إذ إن سورية ومصر وشمال إفريقية وأسبانيا وجنوب غالة كانت لا تزال تنتج محاصيل موفورة زخرة . وينبغي ألا يغرب عن بالنا أن الزراعة في الإمبراطورية الرومانية كانت على الدوام أهم الحرف . وفضلا عن هذا ، فإن حياة الإقطاع التي وصفناها إن هي إلا إحدى مظاهرها . أما الجانب الاجتماعي ،

فإننا لو ألقينا إليه أول نظرة ، فربما تصورنا أننا رجعنا إلى الوراء إلى عهد
جوفينال أو منرتيال أو بليسي الأصغر . وإن الشعر الساخر الذى ألفه أميان
وجيروم ليدور حول البذخ الذى يديه نبلاء الرومان فى ثيابهم وولائمهم ،
وحول حاشية البلاط والطفيليين والأتباع والمبيد . وفى الشرق يجأر يوحنا
فم الذهب (Chrysostom) بصوت كالرعد مندداً بالحرير والجوهر والأثاث
والعربات المموهة بالذهب والفضة ، ويصف الموابك المألوفة المنظمة فى تشكيلة
عسكرية والمكونة من الأرقاء والخصيان والعربات التى تجرها البغال (وهى
التي يلحظ وجودها أميان بروما أيضاً) ، عندما يغادر النبيل من هؤلاء
مدينة القسطنطينية أو أنطاكية إلى مقره الريفي ، وقد حمل معه الرياش
الكثير والميرة الوافرة لقضاء بضعة أيام فقط . وإن ذلك المنظر ليدكرنا
بمنظر عربات الملك^(١) الأعظم (Le Grand Monarque) ، حين تنطلق من
فرساي على طريق مارلى ، غير أن الجو العام لا يفترق فى جوهره عما كان فى
عصر تاسيتوس أو هوراس .

والسبب الرئيسى فى هذه الروح المحافظة التى تتجلى فى آداب سلوك الناس
هو الأهمية الاجتماعية التى نيطت بشكل من أشكال التريبة كان يجنب إلى الإبقاء
على المعايير القديمة . فقد كانت دراسة النحو (الأجرومية) وعلم البيان
ضرورية لإعداد الفرد ، لا للخدمة المدنية فقط — (ولا يخفى أن معظم أفراد
الطبقات العليا كانوا فى حاضرهم أو ماضيهم موظفين فى الإمبراطورية) —
بل وأيضاً من أجل الاختلاط الاجتماعى المهنى . فكان ينبغي للرجل المثقف
أن يكون على معرفة جيدة بالنماذج الكلاسيكية شعراً أو نثراً ، وأن يقدر تمام

(١) الملك الأعظم : بنى لويس الرابع عشر . (المترجم)

التقدير اكتمالها الفنى ؛ وكثيراً ما كانت الأبحاث الأثرية العتيقة أو مسائل الأجرومية مدار الحديث على المائدة أو موضوع الرسائل التى يتسع وقت الفراغ لتحريرها ، غير أن هذا الإصرار على الشكل دون المادة ، هو الظاهرة الدالة على عيبين عظيمين فى فكر ذلك الزمان وأدبه . فالعيب الأول هو أن الفكر والأدب كانا غير واقعيين وعتيقين وأكاديميين . ولم تكن للكلمة المكتوبة إلا أضعف العلائق بلغة الحديث العام ، التى اشتد انحدارها وقتئذ نحو : « اللاتينية المتأخرة » التى ذاعت فى العهود الوسطى ، فإن رسائل سيماخوس إن هى إلا تدريبات واعية على التعبير الرشيق وليست أقوالاً أصيلة ، أما أوسونيوس^(١) الذى يستطيع أن يصور منظراً من المناظر : كارتياح الماشية للماء ، أو صائد سمك يحمل قصبه ، أو مغرب الشمس على صفحة أحد الأنهر بكل ما أوتيه « بروسست »^(٢) Proust من دقة ، دون أن يستخدم إلا نعوتاً قليلة ، فإنه يقدم معرضاً كاملاً من الصور الريفية مثل أساتذة بوردو وثرثرة الريف والعمات العذارى الجديرات بريشة كلمبراي ، على أنه طالمَا أورد من الأساطير والأوصاف الكلاسيكية ما لاهلاقة له بالموضوع . فإن منظر كرمة على ضفاف الجارون ، لم يكن محيىص من أن يستثير منه إشارة إلى رودوبى^(٣) وبنجايوس ؛ ولا مندوحة للدار الريفية أن تذكر الكتائب بجميع مباني مشاهير المماريين من ديدا لوس فصاعداً فى حقب التاريخ .

والعيب الثانى والأشد خطورة وجدية هو السلطان الجارف الذى كان لعلم

(١) أوسونيوس (٣١٠ — ح ٣٩٠) : شاعر لاتينى ولد ببورديجالا (بوردو) وعين لشهرته الأدبية مؤدياً لجراتيان بن فالنتينيان . (المترجم)

(٢) بروسست (١٨٧١ — ١٩٢٢) كاتب فرانسى كتب دراسة نفسية لحياته وزمانه .

(المترجم)

(٣) رودوبى : ولاية يونانية بنرب ترافيا بها مناظر جبلية . (المترجم)

البيان عليهم ، فإن جميع الاعتبارات الأخرى : كالإيقاع والحصيلة اللغوية والتوكيد ، تخضع كلها لهدف واحد هو إحراز الغلبة في الجدل . وهو المبدأ الخبيث الذي تمثله «عصائب الروس المقدسة المنذورة» في رواية «السحاب» لأرستوفانيس^(١) ، وتتجلى آثاره في الكتاب المسيحيين والوثنيين على السواء فيما يقوم في الحليات الزاهية والمبالغة الرتيبة المنتظمة ، والحيف المنعمد مع الخصوم ، وفقدان النزاهة بينهم جميعاً . وهي حال تفشو بدرجة متساوية في هجاء جيروم وبيانيات ليانيوس^(٢) وفواصله المسجوعة ، كما تبدى في أسوأ صورها في المجموعة الضخمة من الجدلين من رجال الكنيسة (الإكليروس) وحتى أوغسطين نفسه لا يسلم منها تماماً ، وإن توقد في كتابه «الاعترافات» قبس إخلاص محموم ؛ ولم تكن نفحات الأروغنى الفاخرة التي وضعها كلوديانيوس^(٣) إلا موسيقى للعقل وحده لا القلب . وكانت أسرار العقيدة المسيحية ورمزيتها بحاجة إلى وسائل جديدة للتعبير ، هذا وإن التراتيل الفخمة لهيلاري وليمبروز^(٤) والغنائيات السحرية النابعة من براعة برودنتيوس^(٥) ، أعظم شعراء المسيحية الرومانية ، لتصهر الأخيلة المبرانية ذات السمة الاستصراخية العجيبة الواردة في ترجمة التوراة^(٦) السبعينية (Septuagint) مع المسائل الرنانة غير المفهومة

(١) أرستوفانيس (ح ٤٤٨ — ٣٨٠ ق.م.) مؤلف درامي فلكامي بأثينا . (المترجم)

(٢) ليانيوس (٣١٤ — ٣٩٢ م) سفسطائي يوناني وثني ، علم بالقسططنطية ، من تلامذته فم الذهب . (المترجم)

(٣) كلوديانيوس (٤٠٨ م) آخر الشعراء اللاتين العظماء ، ولد بالإسكندرية . (المترجم)

(٤) امبروز من آباء الكنيسة اللاتين كتب كثيراً من التراتيل (٣٤٠ — ٣٩٧) .

(المترجم)

(٥) برودنتيوس (٣٤٨ — ٤٠٥ م) من شعراء الكنيسة اللاتينية ، ولد بأسبانيا

وعاصر أوغسطين . (المترجم)

(٦) ترجمة التوراة «سبعينية» أقدم نسخة لإغريقية من العهد القديم ويقال إن واضعها ٧٠ عالماً .

(المترجم)

في الاعتقادات (Dogma) المسيحية ، وإن عقلية القرون الوسطى لتتجلى بالفعل في كتاب الجهاد الأكبر (Psychomachia) وفي كتاب المقدمة^(١) (Cathemerinon Liber) ، وهي عقلية يشهد ما هو محفور على أبواب مدينة شارتر ، بما ركب عليه عالمها المنتظم وما يتصل به من خطة الخلاص ومن مقابلة بين الفضائل والرذائل ومن دورات متعاقبة للمواسم والأعياد ، تلك التي جعلت موثلاً ركيناً يقي الناس مما تجلبه الفوضى التي تملأ الدنيا من أخطار شيطانية شريرة .

ومن نافلة القول أن نلخص في تجريدات آلية ميول ذلك العصر التقليدي النزعة في كل من الفن والأدب والدين والفلسفة والعلوم . وغنى عن البيان أن التفاعلات بين المسيحية والوثنية ، أي التقاء روافد الثقافة الرومانية والإغريقية والشرقية ، لن يتيسر نقل صورة لها — إن كان ذلك ممكناً على الإطلاق — إلا بالإكثار من الأمثلة التفصيلية . على أنه يمكن استخلاص صورة لبعض خصائص الطبقات المتعلمة من كتاب القرنين الرابع والخامس ؛ نسوق منها التعامل الرشيق والتحررية المهمة والإنسانية الواهنة والوحدة الوجودية غير المحددة ، وفوق كل ذلك طائفة ضخمة من الخرافات الشائعة زحفت إليهم من الطبقات الدنيا عندما ضعف المذهب العقلي (Rotionalism) . وإذا نحن شئنا أن نبحث عن التعبير الصحيح عن تلك الفترة ، وجب علينا ألا نطلبه عند الفلاة المتطرفين . فإن سيماخوس العالم المتمكن من العديد الذي لا حصر له من النحل وفلافيانوس الذي يعتبر « آخر الوثنيين » ، والذي كان المدير للامتعاش النهائي الذي أصابته الديانة القديمة في روما عشية انتصار

(١) انظر ج . ١٠ . رابي في « A History of Christ-Lat. Poetry »
(أولسفرود ١٩٢٧) الفصل الثاني عن برودتيوس .

المسيحية^(١) على يد ثيودوسيوس ، إنما ينتميان إلى عصر سابق . أما أوغسطين وسمعان العمودي وأمبروز فهم المبشرون الآذنون بالمدرسانيين^(٢) (Schoolmen) والنسك والأجبار في العصور الوسطى . بيد أن الجمهرة العظمى من ذوى الرأى المتعلمين لاهى بالمسيحية ولاهى بالوثنية . ومما له دلالة أن عقيدة كثير من كبار الكتاب في ذلك الزمن ، نذكر منهم أوسونيوس وكلوديانوس ونُفس على سبيل المثال لا الحصر ، لا تزال موضع أخذ ورد بين الباحثين .

الخلافات الكنسية

على أن عهد ثيودوسيوس يعتبر مرحلة جديدة في علاقة الكنيسة بالدولة . إذ ساد بينهما في الداخل والخارج هدنة قصيرة من الهدوء النسبي . ففي القرن الرابع انقسمت الكنيسة على نفسها نتيجة للهرطقة والانشقاق ، وزاد من حدتها اشتداد المشاعر العنصرية أو النزعات الوطنية المحلية . إذ إن الكراسى الرسولية في أنطاكية والقسطنطينية والإسكندرية كانت تتنازع الصدارة على الشرق . وكان الدوناتيون بإفريقية والبرسكليانيون بأسبانيا وجماعات النسك التى تطوف بمصر والشرق الأدنى بما يشونه من آراء عن الطعام والزواج والملكية والملبس ، — يتلقون جميعاً تأييد السكان فى مناهضة السلطة . والمعروف أن هذه السلطة نفسها التى تتمثل فى شخص الأباطرة كانت منذ وفاة قسطنطين إما أريوسية أو شبه أريوسية ، وكثيراً ما كان كبار رجال الكنيسة فى كثير من الكراسى الدينية يمزلون وفقاً لسياسة

(١) تمكن ثيودوسيوس الأول فى معركة فريجيدس قرب أكويليا من إزال هزيمة ساحقة بجيش الغرب بقيادة أربوجاست الفرنجى وإمبراطوره الضعيف يوجيلوس .
(٢) المدرسانيون : هم فلاسفة أو لاهوتية العصور الوسطى . (المترجم)

الإمبراطور ، فإن تم ذلك على خلاف المشاعر الشعبية ، اقتسم ولاء المدين الكبرى أسقفان أو مطرانان أو أكثر لكل منهما أتباعه المستعدون للهباء . فقد حدث فى روما أن حزب داماسوس البابوى — فى إرهاب منه بقتن القرون الوسطى — اقتحم عتوة كنيسة أورسينوس البابا المغتصب^(١) ، وقتل نيفا ومائة من أتباعه فى يوم واحد (٢٦ أكتوبر ٣٦٦) .

ومنذ أن عقد مجمع نيقية (٣٢٥) تكررت محاولات وضع صيغة الأركان الاعتقادية (Dogma) ، وأنتجت سلسلة من العقائد (Creeds) تمثل سنن المذاهب بمختلف ظلالها وتنتهى غالباً بصب اللعنات على الخصوص . ولم يكن بد لما كان يحدث دائماً من عودة الأحزاب المختلفة إلى التجمع ، من إحداء الشعب ، وخاصة متى زادت أواره المصالح السياسية أو الشخصية أو الوطنية . على أن الأمور اتخذت فى ذلك الحين مظهراً أكثر استقراراً . إذ كان الإمبراطور كاثوليكياً . ومن ثم اتخذت إجراءات صارمة لإزاء مختلف الزندقات (الهرطقات) . على أن المراسيم المناهضة للوثنية اتخذت مظهراً أقوى . إذ حدث فى داخل الكنيسة أن عادت روما والكراسى الرسولية الشرقية إلى الوفاق مرة أخرى — واصطلحت القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية فى اتفاق على الهدف . وصار مذهب أريوس قضية خاسرة داخل الإمبراطورية ، وإن تكاثر أتباعه سريعاً بين البرابرة على حدودها . إذ لم يكن « مذهب وحدة طبيعة المسيح Monophysitism » قد ظهر بعد . وأخذ نظام الكنيسة يزاد استقراراً ، كما أخذت علاقتها بالدولة تزاد توثقاً . وتأسست — أو وسّعت —

(١) البابا المغتصب أو المعارض Anti-Pope : هو حبر أعظم ينصب لمناهضة بابا شرعى

الانتخاب . (المترجم)

امتيازات متنوعة مثل التحرر من أعمال عضوية مجالس المدن^(١) (Curia) أو الإعفاء من الخدمة العسكرية، فضلاً عن حقوق الوصية والملكية. وأصبح للأساقفة اختصاصات مدنية، على حين باشرت السلطة العلمانية المهيمنة على الانتخابات الكنسية بدرجة من النجاح متفاوتة رغبة في صيانة النظام العام وحفظ وحدة الإمبراطورية.

وفي القرن الرابع تمركزت الخصومات المذهبية حول علاقة الابن بالآب؛ وتمركزت في القرن الخامس حول طبيعة الابن. ولم تكن المسألتان منفصلتين إحداهما عن الأخرى. فأما مذهب أريوس، فإنه عندما أخضع الابن للآب، اعتبر عند أنصار اثناسيوس منكراً للألوهية التامة للابن. على حين أن مذهب سايلبيوس، وهو النقيض لمذهب أريوس، كان ينكر مالمسيح من صفة بشرية تامة — على غير أساس واف من التمييز فيما يرى أنصار أريوس. وقد عقد قسطنطين مجمع نيقية، وهو المجمع الذي انتصرت فيه الإرادة الإمبراطورية والذي أُدين فيه أريوس. وحاولت مجامع مختلفة انعقدت في أثناء القرن الرابع أن تقرر مذاهب إما شبه أريوسية، وإما غير ملتزمة بشيء حيال طبيعة المسيح. ثم عقد ثيودوسيوس آخر الأمر مجمع القسطنطينية (٣٨١)، فأكد من جديد عقيدة نيقية، ومنذ ذلك الحين اشتد قمع الأريوسية.

وفي القرن التالي أصبحت المنازعات تدور حول علاقة الناحية البشرية بالناحية الإلهية في طبيعة الابن وشخصيته. بيد أن أهميتها بالنسبة للمؤرخ

(١) أو مندوبي البلديات.

العام إنما تقوم إلى حد كبير في النتائج السياسية المترتبة عليها . ولعل أهم تلك المنازعات التنافس الذي احتدم بين القسطنطينية والإسكندرية ، ولا شك في أن تطورات هذا التنافس توضح كثيراً نواحي الخصومات الدينية في ذلك العصر . وقد كانت الكنيسة منذ أول أيامها قد نظمت نفسها على غرار أقسام الدولة . فأصبحت المدن كراسى أساقفة ، كانوا يجتمعون في مجامع دينية (Synod) تعقد بعاصمة الولاية . وأصبح أساقفة هذه العواصم مطارنة ، يهيمنون على انتخابات من يليهم من أساقفة^(١) . وأخيراً يجيء دور المطران الأعلى أو البطريرك الذي يظهر في الكراسى الرسولية الكبرى بروما وأنطاكية والإسكندرية وإفيسوس ، كما أنه بدوره يشرف على انتخابات المطارنة . ثم دخل في الأمر عامل جديد أثار القلق حين أسس قسطنطين مدينته ، التي أخذت أهميتها تزداد منذ ٣٣٠ م . وكان أسقف بيزنطة من الناحية النظرية تابعاً لمطران هرقلية . وسرعان ما أصبح هذا الوضع شيئاً شاذاً بالنظر إلى الوضع السياسي ، وفي ٣٨١ أعلن مجمع القسطنطينية أنه لا يسبق أسقف بيزنطة في المكانة إلا أسقف روما « لأن المدينة التي هو أسقف لها هي روما الجديدة » . وكان المبدأ واضحاً ، وكذلك كان الخطر الذي ترتب عليه بالنسبة للإسكندرية .

العداء بين القسطنطينية والإسكندرية

ومنذ ٣٩٥ يوم مات ثيودوسيوس إلى ٤٥٠ حين تولى مرقيان الحكم بعد ثيودوسيوس الثاني ، كان نجم مصر في صعود ، وذلك لأن من استولوا على العرش من الأباطرة كانوا ضعافاً ، على حين تولى كرسى أسقفية

(١) على أن هذه التطورات كانت لا تزال غير مألوفة في الغرب إبان القرن الرابع .

الإسكندرية مجموعة متعاقبة تكاد تتخذ هيئة الأسرة الكاملة من الأعباء المشهورين بالقوة والإقدام المجردين من كل خلق أو ضمير ، وكانوا يستخدمون طرقاً تقليدية تدخل فيها الرشوة وصب اللعنات واستغلال العداوة القومية وإرهاب المجامع باستخدام النوتية المسلحين ببناء الإسكندرية ورجبان طيبة . وتولى توجيه السياسة المصرية سلسلة من الشخصيات القوية ورجال اللاهوت الأكفاء ، واتخذ النزاع أربع مراحل : انتهت المرحلتان الأوليان منهما بنصر حاتم للإسكندرية ، وحقت الثالثة مجرد النجاح ، بينما انتهت الرابعة بالسقوط والانهيار .

المرحلة الأولى : ٣٩٨ . وفيها فشل ثيوفيلوس أسقف الإسكندرية في الحيلة دون انتخاب فم الذهب بطريركاً للكرسى القسطنطينية بسبب تأييد يوتروبيوس الخصى تشريفاتى أركاديوس لفم الذهب .

وفي ٤٠٣ استغل ثيوفيلوس غضب الإمبراطورة يودوكسيا على فم الذهب الذى أساء إليها ، وأفاد من حق بعض الفئات المناهضة له فى آسيا ، وتمكن بذلك من خلعهم فى مجمع البلوطة (Synod of The oak) . وانتهى الأمر بإرسال فم الذهب إلى المنفى .

المرحلة الثانية : ٤٣١ . مجمع إفيسوس وفيها تمكن كيرلس أسقف الإسكندرية بفضل استخدام نفس الوسائل من خلع نسطوريوس بطريرك القسطنطينية وحرمانه من الكنيسة ، بتهمة أنه قال بالانقسام الشديد فى شخصية المسيح .

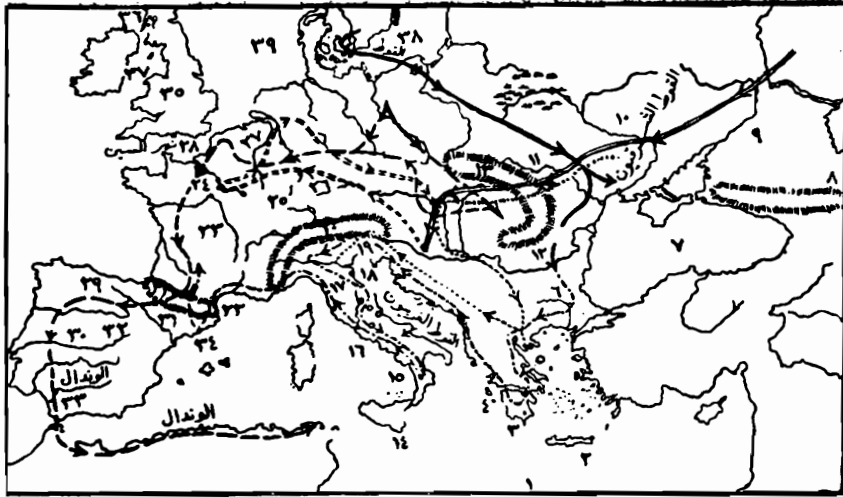
المرحلة الثالثة : ٤٤٩ . مجمع إفيسوس الثانى المعروف بمجمع اللصوص (Lotrocinium) . وفيه نجح ديوسقوروس أسقف الإسكندرية فى خلع غلافيانوس أسقف القسطنطينية وإعادة يوتيوخوس وهو راهب لم يقتصر

ساعة مهاجمة نسطوريوس على الأخذ بمذهب وحدة شخصية المسيح بل وبوحدة طبيعة المسيح أيضاً . ولم يتحقق ذلك النجاح فحسب برشوة الحاجب (التشريفاتى) الخصى كريسافىوس وغيره من رجال البلاط ، بل وأيضاً بقوة مسلحة استخدمت فى المجمع . وفى هذه الآونة أصبحت روما معادية للإسكندرية بعد أن ساندتها فى ٤٣١ بينما كانت أنطاكية تتردد فى موقفها .

المرحلة الرابعة : ٤٥٠ . مات ثيودوسيوس الثانى . وطردت أخته بونفيرا الحاجب كريسافىوس ودعت إلى انتخاب مرقيان إمبراطوراً ، وإلى عقد مجمع خلقدونية (٤٥١) ، وفيه تقرر إدانة يوتيخوس (أوتبخا) ونفى ديوسقوروس ، وبذا زالت نهائياً سيادة الإسكندرية .

على أن نتائج مجمع خلقدونية الأخرى كانت أهم من سقوط الإسكندرية . ذلك أن المجمع أقر مبدأ طبيعى المسيح الذى صاغه ليو (لاوون) بابا روما . فلقى ذلك مقاومة من حزب الإسكندرية ، وانتهى الأمر بأن انتشرت بكل من مصر وسورية هرطقة « وحدة طبيعة المسيح Monophysite » ، وهى مذهب لا يعترف له إلا بطبيعة واحدة فقط . ومنذ تلك اللحظة صار لازماً على الأباطرة بالقسطنطينية الاختيار بين الاتفاق مع روما بعقيدتها السليمة وبين السلام مع إقليمين من أهم أقاليم الإمبراطورية ، وإذ أصدر زينون فى ٤٨٢ رسالته فى الاتحاد (Henoticon) ^(١) اختار بذلك سبيل السلم مع الإقليمين وسار على نهجه الإمبراطور أناستاسيوس . أما جستنيان فاختار

(١) كانت رسالة الاتحاد أو خطة الاتحاد (Henoticon) محاولة لإيقاف كل خصومة دينية بعد ذلك ، بإعلان كفاية العقيدة وفقاً لما تقرر فى نيقية والقسطنطينية ، وبعبارة فى الحين نفسه عن الرغبة فى استرضاء الكنيسة المصرية ومصالحها بالتخلي فعلاً عن قرار خلقدونية وجعله مسألة متروكة للبحث . وكان العامل الرئيسى فى تحطيمها معارضة روما لها .



(٣) خريطة غارات البرابرة

١ - البحر المتوسط	١٤ - صقلية	٢٧ - تريف
٢ - كريت	١٥ - كوستانزا	٢٨ - نهر السين
٣ - اسبرطة	١٦ - روما	٢٩ - السوفيونيون
٤ - كورنثة	١٧ - فلورنسا	٣٠ - الآلان
٥ - ثرموبيلاي	١٨ - راقا	٣١ - نهر الإبرو
٦ - أدنة	١٩ - أكوليا	٣٢ - سرقة
٧ - البحر الأسود	٢٠ - جبال الألب	٣٣ - أشيلية
٨ - جبال القوقاز	٢١ - جبال البرانس	٣٤ - جزر البليار
٩ - الآلان	٢٢ - نربونة	٣٥ - الانجل ساكون
١٠ - نهر الدنيبر	٢٣ - الفرنجة	٣٦ - الاسكتلنديون
١١ - نهر الدنيستر	٢٤ - باريس	٣٧ - البريطانيون
١٢ - نهر الدانوب	٢٥ - البرجنديون	٣٨ - بحر البلطيق
١٣ - جبال الكريات	٢٦ - الآلامان	٣٩ - بحر الشمال

والخطوط تمثل هجرات القبائل وخطوط سيرها .

مسار القوط =====

مسار ألاريك وأتولف

مسار القوط الشرقيين

مسار الوندال - - -

مسار الهون =====

مسار أتيل في ٥٤١ ===

ملحوظة : المسارات المبينة تقريبية

الأخذ بالرأيين على التعاقب . على أن تلك المشكلة لم تنته إلا بعد سقوط مصر
وسورية في أيدي المسلمين .

نشأة الديرية

وكانت مصر مركز هذه المنازعات : وكانت كذلك الموطن الأصلي
للرهبانية . وكانت الإمبراطورية - ولم تقناً - تحوى بكل أجزائها منذ البداية
أعداداً ضخمة من الرجال والنساء (المعترفين والمعداري Confessors & Virgins)
تمارس الزهد ، وتواظب على أداء الصلوات في الكنائس . على أن أنطونيوس
(ح ٢٧٠) أصبح زعيماً لحركة خطيرة منذ أن هجر العالم والكنيسة المنظمة
أيضاً ، ولجأ إلى الصحراء فاسكا . واحتذى مثاله أعداد كبيرة من الناس ؛
ولم تلبث منطقة البحيرات الملحة بواى النطرون ومهراء سقيط ، أن حوت
ما يزيد على خمسة آلاف من النزلاء ، فكان بهاتين الجهتين « أشد الزهاد
تمسكا بالفضائل » (Duchesne) . واستهوى تجلدهم ألباب الشرق واستولى
على خياله مثلما استولت أعمال قديسى الأعمدة على الأفئدة فيما عقب ذلك من
الزمان . واستحدث باخوميوس نظاماً أكثر ثمره فى أثناء القرن الرابع .
فأنست مجموعات من الأديرة لكل منها قاعدة عامة ، وتخضع لسلطة واحدة .
وكانت تزورها جماعات من الحجاج يفدون إليها من روما وغالة وأسبانيا ،
ما لبثوا أن نقلوا طرائقها إلى الغرب . ثم ما عتمت منطقة سيناء وفلسطين
وسورية حتى امتلأت بالرهبان الذين يعيشون فرادى أو فى مجموعات . وفى
آسيا الصغرى ، وضع باسيليوس طائفة من القواعد تفوقت فى اعتدالها
ونظامها على قواعد باخوميوس ، وظلت منذ ذلك الحين إلى اليوم معمولاً بها
فى إدارة جميع أديرة العالم الإغريقى والصقلى (السلافونى) . وكان الرهبان
(• - المصور)

يتنازعون أحياناً مع سلطات الكنيسة والدولة جميعاً ؛ وكانوا يتسلحون بالهراوات ويهاجمون المجمع الدينية ويشتمونها ، أو يهدمون معابد الوثنيين أو المهرطقة أو محاريبهم المقدسة . فالقومية النامية التي تؤذن ببزوغ فجرها الآداب القبطية والسريانية وجدت أبطالها في أشخاص مثل شنوده (Shenuti) ، الذي راح من أبراج ديره الأبيض القائم على رأس تل ، يقود مئات من الأتباع محرّضاً إياهم على مهاجمة من بمصر من الكفرة والآثمين والقضاة الظالمين وأصحاب الأملاك الجائرين .

على أن النفوذ السياسى للرهبان كان أمراً محلياً ومتقطعاً . وأهم منه السلطة العلمانية المتزايدة التي أوتيتها الكنيسة بوصفها هيئة ضخمة ذات جيش من الأتباع ، تملك الأراضى والثروات والمؤسسات الخيرية ويرأسها أساقفة أصبحوا أهم الشخصيات في مدن الأقاليم . فإن أكايوس في آمد (Amida) وسينيسوس في برقة (Cyrene) وسيدونيوس في أوفرنه (Auvergne) وغيرهم كثير ، هم الزعماء الطبيعيون للمجتمع ؛ فكانوا يرأسون السفارات إلى البرابرة وكانوا يحمون قطيعهم (المسيحيين) من المجاعة والعدوان ، بل لقد كانوا يتولون تنظيم المقاومة المسلحة للعدو .

الفصل الثاني

عالم البرابرة

الغزوات

تكفي نظرة واحدة إلى الخريطة لإظهارنا على الموقف الخطر الذي تتعرض له الإمبراطورية في ٣٩٥ . فعلى نهر الراين حل محل القبائل المتنائمة التي عرفها قيصر وتاكتوس ، خط قوى من أقوام أخذت تنتقل ببطء نحو الغرب من منطقة البلطيق ، وكلما اقتربت من النخوم الرومانية ازدادت تماسكا وقيمة حربية . وكانت المجموعتان الفرنجيتان (Frankish) أقوى هذه الأقوام ؛ على أن الألمان الذين عرفوا طريقهم إلى الزاوية المنعكسة بين الراين والدانوب لم يكونوا أقل خطراً منهم، وذلك بسبب المركز الاستراتيجي الذي صار لهم . فأما الزاوية المنعكسة الأخرى التي كونها التواء الدانوب قرب بودابست وبلغراد صوب الجنوب ثم الشرق ، فإنها امتلأت إلى حد كبير عندما أنشئت ولاية داكيا (: ترنسلفانيا ورومانيا) ؛ على أن هذه الولاية الأخيرة تركت للبرابرة بعد ٢٥٧ : فإن الوندال الأسديجين (Asding) كانوا يملكون عند ذاك الشمال الغربي من هذا الإقليم ، بينما أخذ القوط الغربيون يضغطون جنوباً منذ ٣٦٤ على الدانوب ، وقد سد الاثنان الطريق على الجيبيد (Gepids) . وكان القوط الشرقيون لا يزالون يتجولون في السهول العظيمة بجنوب روسيا ، ولم يكونوا فيما عدا بضع ثلث قليلة جواله منهم، قد احتسكوا مباشرة بالإمبراطورية الرومانية ولا اتصلوا بها . وإلى أقصى الشرق نزل

على نهري الدون والثولجا الآلان وهم شعب إيراني ، ومن وراء ذلك اخطت
الأول كانت تنزل قبائل أخرى قلقة مستعدة للقيام بدورها - منها السكسون
على نهر انويزر والأنجل في إقليمى شلزيوچ وهولشتين ؛ فضلا عن السويث على
نهر الإلب واللومبارد في سيليزيا والهيرول (Heruls) بالقرم والصقالبة وراء
مستنقعات البرييت .

وكان كل قطاع من تلك الحدود الطويلة يتعرض في وقت من الأوقات
لمغير يهدده بالاختراق أو يخترقه فعلا ؛ على أن الرومان كانت لهم خطوط
مواصلات داخلية ، وكانت الجيوش تبادر إلى النقطة المعرضة للخطر . فأما
الآن فلم يعد لذلك التدبير جدوى . إذ برزت قوة جديدة من أرض السهوب
الآسيوية ، كان ضغطها هو المحرك لهجمات البرابرة ، التي أصبحت مستمرة بكل
مكان ، والتي لم ينقض عليها أكثر من جيل واحد حتى حطمت الإمبراطورية
في شقها الغربي . وكانت تلك القوة الضاغطة هي الهون . فالمعروف أن الهون
بلغوا نهر الثولجا بعد ٣٥٥ بقليل ، فقهروا الآلان وردوا القوط الشرقيين إلى
ما وراء الدينستر (ح . ٣٧) ؛ ودفع الضغط بالقوط الغربيين حتى عبروا
الدانوب ، وكانت معركة أدرنه الكبرى فاتحة مصائب روما . وتوقف زحف
القوط الغربيين بضع سنوات بفضل ثيودوسيوس ، فلما وافته أجله أخذوا
يعيشون في بلاد اليونان تدميراً وانهاًبا (٣٩٦) ويستقرون في إبيروس (٣٩٩)
فهددوا بذلك شبه جزيرة البلقان وشبه جزيرة اليونان ؛ ثم أوقفهم استيلىكو
حيناً من الدهر ، ما عتموا بعده أن استولوا في النهاية على روما (٤١٠) ، ثم
تجاوزوها إلى أكيثانيا (٤١٦) حيث أقاموا في النهاية مملكتهم التولوزية
(Tolosan) . وفي تلك الأثناء انحاز إلى الآلامان في أثناء فرارهم غرباً ، الوندال .

الأسدنجيون (٤٠١) ، الذين اكتظ بهم وادى النيس ، وأخذوا يتحولون إلى ديار ذوى قرباهم بسيليزيا ويزيدونهم عدداً . ويعززهم السويث ، وتتقدم الشعوب الأربعة فتخترق حدود الراين عنوة (٤٠٦) وتتجول فى أرجاء غالة ثم تعبر جبال البرانس (٤٠٩) وتعيث بأسبانيا فساداً طيلة عشرين عاماً ، قبل أن يستولى الوندال نهائياً على مملكتهم بأفريقية ، وبعد مضى خمسين سنة استقر القوط الغربيون بإيطاليا ، واقسم الفرنجة والبرجنديون بقية غالة . وبات الأنجل والسكسون منهمكين فى فتحهم لبريطانيا ، فإذا انتهى القرن الخامس كانت كل الأقاليم الغربية بأيدي البرابرة .

التاريخ المبكر لألمانيا

والتاريخ المبكر لألمانيا غامض يغشاها الضباب شأن الغابات والمستنقعات التى كانت تغطى الشطر الأعظم من البلاد . فعلى شواطئ البلطيق بين نهري الإلب والأودر كانت تقوم المستقرات الجرمانية البدائية ، وهى مجموعات من الخصاص تبني حينما قطعت الغابات أو فى المناطق المرتفعة وتسكنها قبائل تحترف الصيد أو الرعى . فإذا تزايد السكان أو ندر الصيد تهاجروا غرباً ، دافعين أمامهم الشعوب الكلتية ، وهم السكان الأول لجنوب ألمانيا وغربها . فبلغوا الراين حوالى ٢٠٠ ق . م . ، وفى مدى قرن واحد لم تعد باقاريا كلتية السكان . على أن فتوح قيصر فى غالة وطدت حدود الراين ؛ فلما واجه الألمان الغربيون ذلك الحاجز لم يستطيعوا إحراز أدنى تقدم بعد ذلك . فنحنم عليهم أن يتخذوا وسائل بالغة الأثر فى إنتاج المؤن . وكانت نتيجة ذلك أن تطورت الزراعة وتبلورت النظم . وحل إليهم تجار الرومان أنواعاً جديدة من السلع

وضروباً أجنبية من آداب السلوك . ويصف تا كيتوس الذى كتب بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً نوعاً من الثقافة يفوق فى التقدم ما شهده قيصر .

وفى تلك الأثناء كانت قبائل جرمانية أخرى تعبر البلطيق من شبه الجزيرة الإسكندنافية فيما بين القرنين السادس والثالث ق . م وتستقر على شاطئيه بين الأودر والفتولا . واتخذ هؤلاء الألمان الشرقيون لأنفسهم طريقاً آخر مخالفاً ، فى أثناء القرون التالية التمسوا لهم طريقاً صوب الجنوب عبر أوروبا ، إما صاعدين الفتولا إلى جبال الكربات وإما مخترقين بولندية ومستنقعات البرييت إلى السهول العظيمة التى تمتد شمال البحر الأسود . وقد ظلوا يتحركون على الدوام سعيّاً وراء المراعى الجديدة ، فاحتفظوا بذلك بطرائق عيشهم البدائية على نقيض الجرمان الغربيين . على أن الصورة المركبة التى يصح استنتاجها مما سطره قيصر وتا كيتوس وغيرهما من الرحالة أو العلماء (Savants) ، الذين دونوا عجائب الشعب الجرمانى ، ينبغى ألا تطبق عليهم الآن إلا مع شيء من التعديل ، وذلك بمراعاة مختلف مراحل التطور التى ألت بمختلف القبائل والتى لا نعرف عنها سوى النزر اليسير ، ومن العسير دائماً على المراقبين المتحضرين أن يتجنبوا نسبة الصلابة الشديدة والتمسك ، بالمألوف إلى الأجناس التى هى أشد بساطة ، ذات الأفكار المبهمة والعادات المتغيرة يضاف إلى ذلك ما كان من اختلاف جوهرى فى الثقافة بين الجرمان وسكان دول المدن فى البحر المتوسط . فقد أخضع الفرد فى تلك المدن ، للدولة منذ عدة قرون خلت ؛ فإن ابتعد عنها ، أصبح منبوذاً ، وصار غير مكتمل الإنسانية . فأما الجرمانى فى عزلته أو فى مستقر أسرته الصغير ، فكان قبل كل شيء فرداً يأبى كل تدخل فى شئونه ، ولا يعترف بأى التزام خلا التزام

الولاء لسكلمته وعهده حين يعطيهما لفرد آخر . ومن هنا غلبت عليه نزعة دائمة للابتعاد عن كل مركز أو بؤرة يجتمع إليها الناس ؛ ولو تبعناه في كل مراحل تطوره الدستوري الأبر ، وجدنا أن جميع روابطه مع العائلة والعشيرة والدولة تنحطم . إذ لم يكن بد من حدوث سوء التفاهم بين الطرفين . وأضحى غدر الجرمان موضع التنذر عند الرومان ، نظراً لخرقهم المعاهدات وشنهم الحروب الغادرة . كما أن الولاء الشخصي الذي لعله يكون التفسير الصحيح لخلق استيليكو المتذبذب ، ربما كان السبب في شعور الكراهية الذي يحسه خصومه إزاء ما لا يستطيعون فهمه .

وقد كانت كل قبيلة عند استقرارها فترة من الزمن تحتل منطقة تحدها العوائق الطبيعية كالمستنقعات أو الغابات أو الأنهار . وكانت القبائل تنقسم إلى بطون (فروع Gaus) ، تتفاوت في ضخامتها ، وتقدم للجيش بين ألف محارب وألف وخمسمائة . وكل بطن من هذه البطون تنقسم إلى ما يعرف بالمئين ، وهي جماعات خاصة ، تتراوح الواحدة منها بين المائة والمائة والعشرين من الأحرار ، وذلك لأغراض الحرب أو القضاء ، وترتبط بالعشيرة ؛ وهي مجموعة مؤلفة من عائلات تتراوح عدتها بين العشرة والعشرين . واستمر نظام المئين على الرغم من كل التغييرات التي حدثت ، وصار أساساً . (وما تلحظه هنا وفي مواطن أخرى من «سيميرية» ودقة لا ينبغي تطبيقه حرفياً) .

وكانت السيادة في يد الجمعية الشعبية (Thing or Mallus) ، وهي الاجتماع الذي يضم جميع المحاربين الأحرار ، وهي التي تنتخب الحكام وتبت في معاهدات الحرب والسلام ، وتختار أعضاء جددًا في المجتمع ، وكان يدعو إلى اجتماع تلك الجمعية ملك يرأسها أو رئيس البطن من القبيلة أو زعيمها

(في القبائل غير الملكية) ، وفيها يقدم القرايين كاهن أعلى وينزل العقوبات بكل من ينتهك هدنة الجمعية . وكان رئيس البطن (Gau) يقود كتيبة في الحرب ، ويوفر العدالة بمحكته بمساعدة رؤساء المئات (المئينيات) ، ويعطى كل عائلة نصيبها من الأرض . وكان الملك في الأيام الأولى سلطات بالغة التحديد . وكان لبعض القبائل ملوك ، وبعضها الآخر ملك واحد . وكان بعضها ينتخب قائدا يقتصر عمله على قيادة حملة عسكرية واحدة ، أو يختار رئيس بطن (Gau) ليرأس الجمعية الشعبية ؛ ونم قبائل أخلت فيها الملكية مكانها لحكم الكهان . ومن حق القبيلة أن تعزل الملك إذا أساء أو ظلم ؛ ومع أن الملوك كانوا يختارون عادة من عائلة بعينها ، فإن كل فرد منها كان يصح انتخابه . وكان كل شخص قوى الشخصية يستطيع أن يجعل الملكية قوة فعالة ، ولا سيما وقت الحرب ؛ ومما زاد في سلطة الملك اتصال القوم بالاستبداد الروماني ، ولا سيما حينما تستقر القبيلة فعلا داخل الإمبراطورية .

أما الجيش الذي هو نفسه جماعة الأحرار شأنه في تاريخ بلاد الإغريق وروما الباكر ، فإنه كان ينتظم الآلاف والمئات والعشائر . وكان تشكيله في المعركة يتخذ عادة صورة الإسفين (Cuneus) . والقاعدة الجارية أن الخيالة كانت أهم أسلحته ، على أن الفرنجة كان يغلب عليهم القتال راجلين . وكانت المعادن نادرة . ومما كانوا يستخدمونه في المعارك قلائس الجلد ، والتروس المستديرة المصنوعة من الخشب أو الأغصان المضفورة والمغطاة بالجلد الناشف ، فضلا عن المزاريق (وهي السلاح الرئيسي) . والهرارات والقسي وفوس القتال . وكانت القلاع المستديرة المقامة بقن التلال أو صفوف العربات هي تحصيناتهم . وتطورت صناعة السفن بين القبائل البحرية ، بادئة بالأشجار

الضخمة المحفورة ، التى تقسم لعدد قد يبلغ الثلاثين رجلا ، فتنقلة إلى الغلايين^(١) المصنوعة من الألواح على النحو المعروف عند الفينيكس ، والتى تقسم لأكثر من مائة ، إلى سفن القرصان السكسون ذات الشراع المصنوع من الجلد ، والتى أصبحت مصدر الفزع لموانئ بحر المانش .

وكانت أدنى طبقة فى المجتمع تتكون من شعوب مغلوبة تقوم على فلاحه الأرض ، وذلك فضلا عن وجود قلة من خلم المنازل معظمهم من أسرى الحرب ؛ وكان عدد أفراد هذه الشعوب الخاضعة يزداد كلما نمت الزراعة (وذلك لأن الجرمان الأحرار كانوا يأنفون ممارسة الفلاحه) . حتى جاء أوان أصبح فيه الهدف الأول من الغارات الحصول على هؤلاء العمال الزراعيين . وكانت الطبقة الثانية وهى طبقة الأحرار ، هى الجمهرة الغفيرة من السكان . أما النبلاء فهم عائلات الملوك ورؤساء البطون . وكان لكل ملك أو رئيس الحق فى أن يتخذ له أتباعا (رفاقا Comitatus) وهم جماعة من الأتباع الأحرار الذين كانوا يتناولون الطعام على مائدته زمن السلم ، ويشكلون حرسه الخاص فى أثناء المعارك .

على أن البيان السابق ينطبق على جرمان الغرب المستقرين أكثر مما ينطبق على تلك القبائل البدائية التى نحن على وشك أن نرسم تجولاتها^(٢) .

(١) الغليون معرب لفظة (galley) وهى لفظة مستخدمة من قديم الزمان فى حوس البحر المتوسط وتدل على طراز قديم من السفن التى تدفع بالمجاديف والأشرعة . (المرجع)
(٢) إن العادات العقلية التى أنتجت هذه الثقافة ، كانت مع ذلك شائعة الانتشار بين جميع الشعوب التيتونية ، كما أن النظم التى لم توجد إلا فى صورة بدائية فى أثناء فترة الهجرة ، مالت أن ازدادت تطورا عندما توقفت الهجرات . على أن الصراع بين هذه النظم الجرمانية وبين الحضارة الرومانية سوف يؤلف أساس الفصل التالى .

وكانت الماشية أهم مصدر للطعام في أثناء الزحف والمسير ، وفي ذلك إلى حد كبير تفسير للسرعة المدهشة التي كانت تنتقل بها الجموع المهاجرة ، فإن دوابهم لم تكن في حاجة إلى وسائل نقل ؛ بينما الواقع أن عرباتهم كانت تجرها الثيران فعلا . ومن العسير تقدير أعداد الشعوب الغازية ؛ ومن المحتمل أن الشعوب الكبرى منها كانت تضم أعدادا تتراوح بين الثمانين ألفا والمائة والعشرين ألفا ، على حين أن عدة الصغرى منها كانت تتراوح بين ٢٥٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ ويمكن اعتبار مقدار الخمس من كل شعب رجالا مقاتلين ، إذ إن المعارك الكبرى التي كانت تنشب بين الجيوش الإمبراطورية وأعدادهم الجرمان كان يشترك فيها قرابة عشرين ألفاً في كل من الجانبين . ومن ثم يجوز القول بأن الإمبراطورية الرومانية تعرضت لهجمات أعداد جارفة من الأعداء .

وليس من العسير علينا أن نشهد صورة كاملة لهؤلاء القوم « على ماؤلف عاداتهم من العيش » . غير أن الرومان اهتموا بالناحية البشرية (الأنثروبولوجية) لهؤلاء الجرمان ، هؤلاء الأطفال الطوال ذوى الشعور الشقراء الذين يزينون أنفسهم بدمالج السواعد والسلاسل المصنوعة من الذهب ، وهم يرقدون أساييع ناعسين أمام النار ، عاكفين على الشراب أياماً كاملة بلباليها ، أو تبحش نفوسهم بالحزن أو الغضب المفاجيء ، فينفجرون بالبكاء أو يصرعون أحد الأرقاء ؛ أو يتصايحون مع جيرانهم ، أو يغيرون على الماشية ويحيمون قاذتهم في المجالس بدق تروسهم بمزاريقهم أو يتبعونهم في معمعان المعركة حتى الموت . على حين أنهم يتراءون لنا متماثلين ؛ فيبدون لعين الباصرة برابرة يكتسون الجلود ، ويبدون لعين العقل جماهير من الجياع تدفعهم قوى اقتصادية إلى الأمام . ومن العسير التفرقة بين أمة فيهم من أمة . فالومبارد

يحملون فأس القتال (Barda) الطويلة ، ويتخذ الفرنجة الفرا نسيكة (Francisca) القتالة ، ويشهر السكسون سيفاً قصيراً (Sah). ويكتب سيدونيوس في أخريات القرن الخامس عن البرجنديين بأن الواحد منهم يبلغ طوله سبع أقدام ، وأنهم يدهنون شعورهم بالزبد الزنخ ، ويشتهرون بالشراة في الطعام ويتحدثون بأصوات جهيرة. والفرنجي أشهب العينين حليق اللحية أصفر الشعر ويرتدي ستره (Tunic) ^(١) ملتصقة بجسمه . ومع ذلك فما أقل ما تبرز الشخصيات بين هؤلاء الأقوام . فإن ماربود (Marbod) وإرماناريك (Ermanaric) ، وهما سيدان أعليان لإمبراطوريات متناثرة لم يزيذا على كونهما مجرد اسمين . وأزمة الهجرات هي عصر البطولة عند الشعوب الجرمانية ، كما أن الشخصيات والأحداث التي كانت تمس أخيلتهم ، لا ترى إلا معتمة في شذرات من القصص الشعبي ، وحلقات الملاحم التي تعرضت إلى التشويه والالتواء في الأزمنة المتأخرة .

فإن أسطورة الأيالة ^(٢) التي قادت الهون خلال مستنقعات القرم حتى فاجأوا الآلان إنما تنطوي على شيء من الرعب السائد في ذلك الزمان . ولا يزال شخص ثيودوريك الجبار العاني وحصاره الطويل لمدينة رافنا الحافلة بالأسرار ينعكس في قصص ديتريتش فون برن ^(٣) وراينشلاخت . كما أننا نلمح في ملحمة نيبلونجينليد (Nibelungenlied) بصيصاً ضئيلاً عن قصر جندريك البرجندي القائم على الراين وما اشتهر به من الفخامة والروعة .

(١) السترة أو التونقة : جناب رومانى يقفه الفميص . (المترجم)

(٢) الأيالة أننى الأيل وهو النوع وجمعها أيايل (المترجم) .

(٣) أعنى ثيودوريك الفيرونى (Dietrich von Bern & Rabenschlacht) .

القوط الغربيون

كان القوط الشرقيون والقوط الغربيون في الأصل شعباً واحداً . ويظهر من ثنايا أساطيرهم ودلالات أسماء الأماكن أنهم عبروا البلطيق قبل القرن الرابع قبل الميلاد من اسكنديناوه إلى مصب الفستولا . وحوالي ١٥٠ للميلاد شرعت بعض القبائل القوطية تتحرك صوب الجنوب الشرقي ، حركة دفعت بهم إلى أعلى الفستولا خلال مستنقعات البريت ، حتى بلغوا في النهاية حوض الدنيبر الأدنى والساحل الشمالي للبحر الأسود . ومن ثم تفرعوا فرعين : اعتبر معنهما — بالنظر إلى ما تلا ذلك من أحداث — القوط «الشرقيون والغربيون» . وسرعان ما انتشرت قبائل القوط الشرقيين بأرجاء جنوب روسية ، على حين انحرف القوط الغربيون نحو الغرب ، ودأبوا على إيقاع الفساد بولاية داكيا ، بل حتى بمقدونية وبلاد الإغريق . وأخيراً لم تعد روما تستطيع الاحتفاظ بداكيا ؛ فانسحب تجارها وموظفوها إلى ما وراء الدانوب ، الذي صار من جديد ، بعد تحصينه ، حداً للدولة ، شأنه قبل عصر تراجان .

وفي ذلك الحين أخذت تتكشف تغيرات كثيرة : فقد دخلت إليهم المسيحية الآريوسية ، فأحدثت بينهم الشقاق الداخلي . وقدر لصورتها الإلحادية أن تلعب بينهم وعند سائر الشعوب الجرمانية دوراً عظيماً في شحذ الشحنة والعداوة بين الرومان والبرابرة . وكانت نتائج غزوة الهون أهم من ذلك كثيراً . وقد غلب الفزع على القوط الغربيين فحصلوا من الإمبراطور على إذن بعبور الدانوب إلى ميسيا الدنيا (بلغاريا) ، ثم ترامي بهم الأمر إلى الاستقرار داخل الإمبراطورية كوحدة قومية . وهذه هي البادرة الأولى للطريقة التي تمزقت على غرارها أوصال الأقاليم الغربية بعد زمن يسير . غير أن الاستقرار كان مؤقتاً ؛

ولم يتم فعلاً إلا بعد حرب استمرت أربع سنوات ، بسبب ما تعرض له هؤلاء اللاجئين من معاملة سيئة من قبل الموظفين الرومان ، كما لم تبلغ المسألة ذروتها إلا بكارثة (٣٧٨)^(١) العظيمة . ولمعركة أدرنه أهمية مزدوجة . فإنها من أعظم ما منيت به روما من الهزائم على يد الجرمان ، ويمكن وضعها في مصف " فاجعة فاروس (Varus) التي حدثت عام ٩ للميلاد ، وموت الإمبراطور دكيوس في (٢٥١) . كما أنها البداية الحقة لحروب القرون الوسطى ؛ فنذ تلك اللحظة أصبحت الجند الراكبة الثقيلة التي دهمت بسنابكها الفرق الإمبراطورية ، هي العامل الفاصل في المعارك ، حتى تحدى حملة الحراب السوبسريون والرماة الإنجليز في القرن الرابع^(٢) عشر كل ما كان لها من تفوق .

ولعل أعظم الأحداث شأنًا انتخاب القوط الغربيين أларيك ملكا لهم ، عقب وفاة ثيودوسيوس . وقد عمد أларيك شأن كثير من المقترين من الجرمان ، إلى التحلل إلى حد ما من أوامر الدم ، وانخرط في الجيوش المحالفة للرومان . ولعله كان يأمل في الارتقاء إلى مركز هام بالإمبراطورية ، كما فعل أربوجاست واستيليكو وغيرها . ذلك بأن ما لجأ إليه من المداورات العجيبة إبان السنوات الخمس عشرة التالية يصح تفسيره على أن مصالحه لم تتفق في مجموعها مع مصالح قومه من القوط الغربيين (التي اقتصررت على حيازة الأرض وتلقي المعونة المالية) ، بل كانت تنجيه نحو إحراز وضع خاص داخل الإمبراطورية . فبدأ بإعمال التدمير والفساد بكل بلاد اليونان ، بما في ذلك شبه جزيرة

(١) انظر ص ٧٥ بعنوان الغزوات .

(٢) على أن أهمية الحياة تجلت في أوائل القرن الرابع ، وبخاصة في معركة مورسا

(Mursa) في (٣٥١) .

البيلوبونيز (المورة) . وكانت جند الرومان بقيادة استيليكو الذى لم يقم بأية مقاومة فعالة لعدة أسباب^(١) . وكانت الخطوة التالية هى تعيين أَلاريك « سيدا للجند » فى إَلليريا (Illyricum) ، وهو أمر أرضاه مدة أربع سنوات . على أن ما كان يأمله من القسطنطينية من ترقية أخرى ، ربما قضت عليه الأزمة التى ثارت ضد الجرمان ، وهى الأزمة التى كانت تنفزز بها تلك المدينة^(٢) ، ومن ثم حول وجهته نحو الغرب . ولكن حظه فى الغرب لم يكن أسعد منه فى الشرق . فلو خاضعته بعض الآمال فى الوصول إلى تسوية مع استيليكو ، فإنها تبددت يوم وقعت فى الغرب أزمة مناهضة للجرمان كالتى وقعت فى الشرق أعقبها مقتل استيليكو وملاحقة البرابرة بالقتل والذبح بكل أرجاء إيطاليا . وعندئذ لم يعد يبدو محتملاً تحقيق شيء من مطمئني أَلاريك وهما : — توفير مستقر من الأرض لقومه والحصول على منصب سام لنفسه فى الشق الغربى من الإمبراطورية . ومن ثم زحف بجيوشه على وسط إيطاليا . وكانت الحكومة الرومانية تتخذ أحياناً طريق العناد وتنزع أخرى إلى الإذعان . وارتاب أَلاريك فى الأمر ، وخشى الخيانة فنارت ثأرته ، وما نشب أن فرض الحصار على روما ، التى سبق أن أدت له إتاوة مقابل رحيله عنها — ولم تلبث المدينة الإمبراطورية أن سقطت فى ٢٤ أغسطس (٤١٠) . فنهبت دور النبلاء وأحرقت ، ولكن الأنفس التى أزهقت كانت قليلة . ونجحت الكنائس من كل ضرر (فإن أَلاريك كان مسيحياً أريوسى المذهب) ولم يحق بالآثار القديمة ضرر بليغ . ولكن أخبار الكارثة تردد صداها بكل أرجاء العالم المتحضر ؛

(١) انظر ص ٧٦ وانظر ما ورد بعنوان : « القرن الخامس فى الغرب » ف ٣ .

(٢) انظر ف ٣ بعنوان تصادم الحضارات .

فترامى للكثيرين أن نهاية العالم قد أزفت^(١).

وعندئذ اقترح الأاريك عبور البحر إلى إفريقية ، إما بقصد إسكان شعبه بصفة دائمة في ذلك الإقليم الغنى أو التحكم في إيطاليا بوضع يده على مستودع قمحها . ولكن سفن النقل حطمتها عاصفة مباغتة ، كما أن الأاريك نفسه مات قبل نهاية العام . على أنه لا بد أن نتذكر أن غزوته لم تكن هجوماً معادياً موجهاً على الإمبراطورية ، فإنه شأن بقية الجرمان كان يعد الإمبراطورية نظاماً ضرورياً ، له ولقومه فيها حق طبيعي في الحصول على مكان . وتبدى هذه الفكرة بشكل أدعى للعجب عند أتولف شقيق الأاريك وخليفته . فإنه سمع وهو يقول إنه كان يأمل أن « يحول رومانيا إلى قوطيا » ويجعل من نفسه إمبراطوراً قوطيا عليها . ثم عاد بعد ذلك وقد اقتنع بأن القوط أبعد الناس عن احترام القانون وأشد الناس شماسا ، بحيث لا يصلحون ورثة الرومان ، فعول على استخدام شعبه في خدمة الإمبراطورية واكتساب لقب معبد مجد العالم الروماني (Restitutor orbis Romani) . ولعل عدوله هذا عن رأيه قد حدث عندما انتقل إلى بلاد غالة ، وخاض الحرب لصالح الإمبراطورية وتزوج في ناربون^(٢) من جالا بلا سيديا شقيقة الإمبراطور ، التي كانت أخذت أسيرة من روما ، ومع ذلك فإن هذه الفعلة الأخيرة كدرت هونوريوس ؛ وعندئذ قطع أسطول روماني الطريق على ميرة القوط ، فاقْتادهم أتولف

(١) إن أعظم أعمال أوغسطين وهو كتاب « De Civitate Dei » أى . مدينة الله كتب استجابة لما أحسه المسيحيون من حاجة إلى فلسفة للتاريخ تستطيع تضيء هذه السكائنة ، وتعليل الحقيقة المزعجة : من أن المدينة التي عاشت بعد أباطرتها الوثنيين ، قد وجب أن تسقط أخيراً عندما اعتنق حكامها الدين المسيحي .

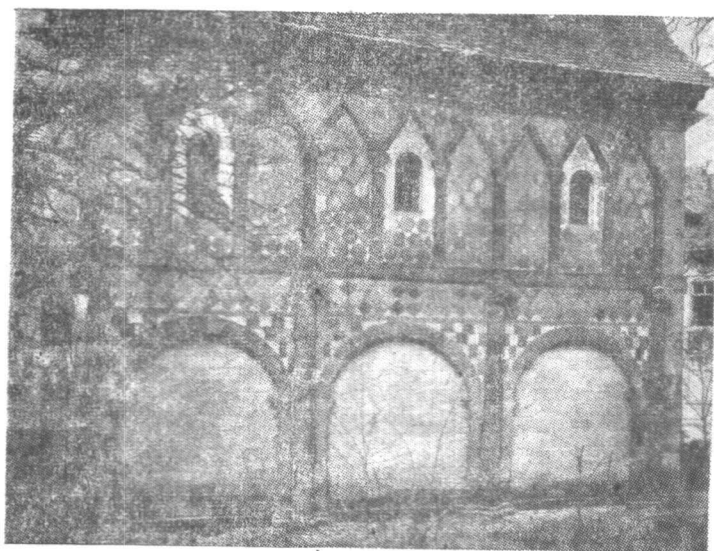
(٢) يسميها مؤرخو العرب أربونة (للترجم)

إلى أسبانيا ، حيث مات في السنة التالية . وانتقم القوط من الرومان على هذا التصرف ، فأنزلوا كثيراً من الإهانات بجالا بلاسيديا ، ثم توصل « واليا Walia » الملك التالى الذى عقبه فى الملك إلى عقد اتفاق مع روما : تقرر بمقتضاه أن تعود جالا بلاسيديا إلى وطنها مقابل حصول القوط على ما يلزمهم من طعام ، فضلاً عن قيام القوط الغربيين بتطهير أسبانيا من المغيرين من الوندال والسويف والآلان. حتى إذا أفنى القوط الغربيون الوندال السيلنجيين ومعظم الآلان ، حصلوا على مستقر دائم لهم ، تقرر أن يكون بفرنسا لا بأسانيا ، حيث صارت لهم الغلبة والسيطرة بدرجة يخشى شرها . ومنذ تلك اللحظة عملوا فى الدولة جنماً مرتزقة محالفين (Foederati) ، وأصبح فى حوزتهم ما يسمى اليوم باسم أكتانيا (اكويتين) وهو الإقليم الواقع بين نهري اللوار والجارون . وهذه المنطقة التى كانت تضم بواتيه وبوردو وتولوز ، كانت لا تزال جزءاً من الإمبراطورية ، كما أن سكانها الرومان ظلوا خارج سلطان القوط الغربيين كما ظلوا خاضعين للإدارة الإمبراطورية ، على الرغم من أنه تختم عليهم أن يتنازلوا عن ثلثى أرضهم للوافدين الجدد .

وفى تلك الأثناء كان البرجنديون وهم من الجرمان الشرقيين الذين نفذوا إلى سيليزيا قرابة ١٥٠ للميلاد ، ثم دخلوا وادى المين بعد ذلك بمائة سنة ، — قد شقوا طريقهم بين ظهراى الألمان إلى نهر الراين ، فبلغوه فى نهاية القرن الرابع . وفى ظل حكم أسرة جيبيتشنج (Gibichung) (وهو اسم رددت صدها موسيقى فاجنر) التى كانت ورمز مقر حكمها ، — أجاز لهم الرومان حيازة ما يقع على جانبي النهر (الراين) من الأراضى بقصد حماية النخوم من غارات الألمان ، وفى أقصى الشمال ظلت مجموعتنا الشعوب المعروفة باسم الفرنجة الساليانيين والريبواريين ، مصدر خطر مستمر نحو



٤ - (١) صورة تيجان أعمدة من عهد الميروفنجيين



٤ - (ب) صورة تبين العمارة في عهد الاسرة الكارولنجية

ماتى سنة ، ولم تبرح تستغلان كل ما يلم بالإمبراطورية من أزمات لعبور النهر ، من أجل الإغارة والنهب . وتمكن الإمبراطور جوليان من إعادة الأمن إلى نصابه (٣٥٧ — ٣٦٠) وأجاز للساليين أن يمشوا ببلاد البلجيك رعيا للإمبراطورية .

على أن الريواريين دفعوا لفترة من الزمن إلى ما وراء الراين ؛ ولكن الضغط لم يفتربل زاد شدة وبخاصة بمنطقة كولونيا ، وعلى الرغم من تحصين تلك المدنية العظيمة مرات عديدة ، فقد كان مصيرها محتوما . وانتقلت العاصمة الإدارية لغالة من تريف إلى آرل فى مطلع القرن الرابع ، على أن تريف تعرضت فى مدة عشرين عاماً لثلاث هجمات عنيفة .

البرابرة فى فرنسا وأسبانيا

ومع ذلك فإن هونوريوس جدد المعاهدة مع الفرنجة ، فأضحت غالة سنة ٤١٦ فى سلام من الناحية الرسمية . وبدأ لروما فترة من الزمن أنها توصلت إلى حل مشكلتها وأن الجموع الغازية سيتم تمثلها بسلام فى الأقاليم الغربية . وقد استقرت فى فرنسا آنذاك ثلاثة شعوب بربرية (الفرنجة الساليون والبرجنديون والقوط الغربيون) ، كما استقر شعبان آخران بأسبانيا (الوندال والسويف) وسنتعقب بعد هذا هجرات الوندال حتى مستقراتهم بأسبانيا وما يليها (شمال إفريقيا) .

وكان الوندال من الشعوب الجرمانية الشرقية وقد غادروا ساحل البلطيق فى وقت سابق على تحرك القوط ، ثم نجدهم عند حلول القرن الأول الميلادى فازلين بسيليزيا وبوهيميا . وترتب على الاضطرابات التى أثارها حرب الماركومان (حوالى ١٦٦ م) ، أن تعرضت الأقوام لتفرق والتشتت ، فتحرك صوب (٦ — المورد)

الجنوب إلى هنغاريا شعب الوندال الأسديين ، الذى اشتق اسمه فيما يحتمل من اسم البيت المالك فيه . وبقى الوندال السيلنجيون بسيليزيا ، التى يظهر أن اسمها ليس إلا صيغة صقلبية للاسم القديم « سيلنجيا » ، وبعد مدة تقارب القرن ، هاجر عدد منهم إلى الحوض الأوسط لنهر المين . وأضعف الأسديين فترة من الزمن ما وقع من صراع بينهم وبين القوط . ولما اكتشفوا حوالى عام ٤٠٠ أن الأرض التى يعيشون بها على نهر الثيس تضيق بمعيشتهم ، غادروا جانب كبير منهم بقيادة ملكهم جوديچيل وانحازوا إلى الآلان (الذين هربوا غرباً فراراً من هجوم الهون) ثم عبروا الدانوب الأعلى . على أن مسيرهم توقف عند هذا الحد ، وظلوا يسكنون داخل الإمبراطورية مدة خمس سنوات بوصفهم جنداً مرتزقة (Foederati) . غير أن الدولة الرومانية اضطرت فى ٤٠٦ أن تجرد حدود الراين من الجيوش لمواجهة خطر الأاريك وقومه من القوط . وسرعان ما انتهز أعداؤها الفرصة على الفور . فإن الوندال الأسديين والآلان ، عبروا النهر المتجمد (الراين) وقد زادت أعدادهم زيادة ضخمة بمن انضم إليهم من السوييف والوندال السيلنجيين إلى آخر ليلة من السنة . وظلت جماعاتهم المتناثرة من الخيالة مدة سنتين تعمل التدمير فى الشطر الأعظم من فرنسا ، دون أن تلقى أية مقاومة منظمة ، على أن تولوز قاومت جميع هجماتهم بفضل أسقفها الذى دافع عنها باقتدار وكفاية . والشعر المعاصر لتلك الأحداث يعرض بالكلم صور ذلك الغزو . فإن مدناً حصينة تستسلم للسيف والنار : وتقع بأيدي البرابرة صياص^(١) نجم فوق صخرات وعرة وبيوت نساك قائمة بمفردها فى أكناف الغابات ، وكنائس تحرسها آثار القديسين

(١) الصيغة : الحصن والقلمة كما ورد فى القرآن الكريم (المترجم)

والشهداء . « لقد كانت بلاد الغالة تتصاعد إلى السماء دخاناً لحريق واحد متصل^(١) » .

الوندال

بيد أن العاصفة أخذت في الهدوء . ففي ربيع ٤٠٨ عبر الوندال وحلفائهم جبال البرانس وهبطوا أرض أسبانيا ، حيث واصلوا إفسادهم مدة سنتين آخرين . وعندئذ تدخلت روما ، وعقدت تسوية مؤقتة في (٤١٠) ؛ وأُنزل الأسديجيون والسويف بمقتضاها في غاليسيا ، والسيلينجيون في اندلوسيا ، على حين استقر الآلان في البرتغال وشمال شرقي أسبانيا . ومع ذلك ، فإن روما لم تنس سياستها القديمة : « فرق تسد » ؛ فعمدت إلى استخدام خير ما جربته من وسائل التعامل مع أعدائها بأن عهدت في ٤١٦ إلى « واليا » ملك القوط الغربيين بمهاجمة البرابرة بأسبانيا . وكانت ترجو من وراء ذلك إقاص أعداد الطرفين . وقام واليا بمهمته بنجاح باهر محق به السيلينجيون من الوجود محققاً ، واضطرت بقايا الآلان أن تندمج في الوندال الأسديجين . وعندئذ اتبعت السياسة الرومانية سبيلها المألوف . فاستدعى القوط الغربيون من أسبانيا ، حيث اشتدت قوتهم أكثر مما ينبغي ، ومنحوا مستقرات في أكتانيا . ثم منحت الدولة عوناً للسويف لمناهضة قوة الوندال والآلان المتزايدة ، فهزم الأخيرون ودفعوا إلى جنوب أسبانيا . وهنا جمعوا شنتهم رغم ما حدث لهم وصدوا جند الرومان ، ولم تلبث المدن الساحلية القوية التحصين أن سقطت في أيديهم الواحدة تلو الأخرى تحت ضربات هجماتهم من البر والبحر . وبما يدل على أن روما رأت بوضوح خطر قوة البرابرة البحرية ، ما بذلته

(1) Uno Fuma Vit Gallia tota rogo.

من محاولات للاحتفاظ بالسواحل الجنوبية لفرنسا وأسبانيا ؛ ومما له دلالة صدور قانون بالقسطنطينية حوالى ذلك العهد ينص على إنزال عقوبة الإعدام بكل شخص يُعلم البرابرة طريقة بناء السفن . غير أن الدولة الرومانية عجزت تماماً عن تجنب ذلك الخطر . فاستولى البرابرة على أشبيلية وقرطاجنة^(١) ونهبوها ، وعندئذ تطلعموا إلى مقاومة أعظم .

وفى (٤٢٨) أصبح جزريك (جاسريك) ملكاً على الوندال . وهو من أعظم شخصيات ذلك الزمان ، ولا شك أنه كان سياسياً بارعاً فاق كل زعماء البرابرة باستثناء ثيودوريك وكلوڤيس ، فضلاً عن كونه مقاتلاً موفقاً لا يجد الخوف إلى قلبه سبيلاً . وهو الذى أدار دفعة غزاة إفريقية ، والراجح أنه وزن العواقب وزنها الصحيح . فإن تلك البلاد كانت غير مستقرة الأحوال ؛ إذ كان سكانها البربر (Moorish) فى ثورة ، وزاد الانشقاق الدونائى الاضطراب شدة . ولم يكن لدى السكونت بونيفاس قائد الرومان قوة كافية من الجند ، والواقع أنه لم يكن قادراً على صد الغزاة . يضاف إلى ذلك أن من يسود إفريقية يمسك بيديه مفتاح إيطاليا . وتلك مسألة معترف بها من زمن بعيد ، إذ إن امتلاك تلك الأقاليم (الإفريقية) كان جزءاً جوهرياً من استراتيجية كل من فسبازيان وسيثيروس من بعده . وأصبحت روما بخسارة فادحة لما ترتب على فتح جزريك من ضياع الجزية التى تؤديها لها إفريقية ، وأشد من ذلك خطورة أن موارد قمحها أصبحت وقتذاك تحت رحمة ذلك البربرى . وبنمو قوة الوندال البحرية لم يعد الأمر قاصراً فحسب على عجز الجيوش الإمبراطورية عن بلوغ إفريقية ، بل إن جميع الموانى وجميع تجارة غرب البحر المتوسط ، أصبحت معرضة لانتهاب القراصنة ، على حين أن قوات الوندال ربما هبطت فجأة بأية نقطة بإيطاليا أو صقلية .

(١) قرطاجنة هذه مدينة أسبانية وهى غير قرطاجنة الموجودة بتونس . (المترجم)

وفي عام (٤٢٩) قاد جزريك قومه ، وعدتهم حوالى ثمانين ألفا ، عبر مضيق جبل طارق . فبادر إلى اجتياح السهول الغنية والاستيلاء عليها ، غير أنه لم يتمكن من فتح قرطاجة وبعض معاقل أخرى . وعززت القوات الرومانية ، فأنزلت بجزريك هزائم فادحة فمقد مع الرومان معاهدة ، استقر بمقتضاها الوندال هناك بصفة جند مرتزقة محالفين . ومن الجلى أن تلك الحركة قد تمت بتقدير محكم . فلم تمض أربع سنوات حتى استولى جزريك فجأة على قرطاجة . ولمنع الرومان من الإقدام على هجوم مضاد ، أرسل عمارة بحرية قوية لإعمال الدمار فى صقلية وسردينية (اللتين كانتا تعتبران آنذاك المصدر الرئيسى لمؤونة الرومان) . وفى (٤٤٢) ، اضطرت روما أن تعترف بجزريك حاكماً مستقلاً للشطر الأكبر من الأقاليم الإفريقية ، وكان ذلك هو الثمن الذى دفعته فى مقابل السلام . وبذلك صار وضعه مختلفاً تماماً عن وضع ملوك القوط والبرجنديين ، الذين كانوا لا يزالون رعايا للإمبراطورية الرومانية .

الهون

ويحدث بين الفينة والفينة فى التاريخ الأوروبى أن تفتح نافذة على مصراعها بغتة فنطل منها على إقليم مجهول من سهوب مترامية ، أو صحراوات من حصباء أو رمال أو مناطق من الحجر الأسود البراق أو مراعى فوق الجبال الشاخحة . وتحرك فوق سطحها ثلل صغيرة من الراكبة ، وهى تسوق أمامها قطعاناً من الشاء وأرابعيل من الخيل . فإذا حل الصيف وجدتهم بماء فى أقصى الشمال ينتجعون السهول العظيمة التى تمتد حتى غابات الصنوبر السيبيرية . فإذا اقترب الخريف قوضت الخيام وحملت وانطلقت الخيماآت المكونة من خمس أو ست حائلات فى طريقها نحو الجنوب ، وهى تخرق على التعاقب سهوب الطفل

المظلية والسهوب الملحة وصحراوات الحصباء ، وفيافي الرمال المتنقلة ، حتى يصل القوم إلى حوضى بحر قزوين وبحر آرال . وبعض هذه القبائل تجتاز حوالى عشر درجات من خطوط العرض فى كل عام ، وهى مسافة قد تصل إلى ألف ميل ذهابا ومثلها إيابا . والرحلة ضرورية ، إذ إن السهل الشمالى يغطيه فى الشتاء طبقة سميكة من الثلج ، فإذا حل الصيف جففت حرارته كل ما فى الجنوب من كلاً . وقد أفضى قيام هذه الظروف على كثر القرون إلى نشوء الثقافة البدوية (الترحلية) . ولكى يتم بسرعة قطع مسافات مترامية من الأراضى الصحراوية ، رُبِّى جنس من الخيل يستطيع العدو عشرين ميلا فى الدفعة الواحدة ، وأن يقطع فى اليوم الواحد أكثر من مائة ميل . ويقضى الرجال حياتهم على ظهور الجياد . فتنحرف أقدامهم إلى الخارج ، ولا تصيب (سمانة) الساق إلا حظاً ضئيلاً من النمو . وهم قوم من العنصر المغولى مكتنزو الأجسام كبار الرءوس قمحيو اللون عيونهم مشقوقة وأفواههم كبيرة وشعرهم أسود صلب ، ولا يمكن استخدام الثيران هنا — إذ إنها لا بد أن تهلك فى الصحراء ، وذلك فضلاً عن شدة بطئها . ولا تنس أيضاً أنه يستحيل على البدوى الحق ، أن يمارس الزراعة . إذ إن طعامه الأساسى هو لبن الأفراس والأغنام بعد تجهيزه بطرائق شتى . وشهوته للطعام هائلة ؛ ولكنه فى بعض الأحوال يستطيع تحمل العطش أياماً والجوع أسابيع . وهذا أمر يتمشى مع ظروف حياته ، التى تسكاد تبلغ حد المجاعة شتاء والوفرة التى لا حد لها صيفا . والخيم هو وحدته الاجتماعية : إذ إن أراضى الرعى والآبار لا تكفل العيش لما يزيد على ذلك ، ولكن الخيم جزء من العشيرة ، والعشيرة جزء من القبيلة والقبيلة جزء من الشعب . وقد تظهر الأيام فى بعض الأحيان (خاناً) عظيماً يلم شمل الشعوب فى رهط حاشد : فإن كان الرهط أضعف من الأرهاط المجاورة له ،

دُفع من منطقة السهوب فيهبط على فارس وأرمينية وجنوب روسية أو هنغاريا . وربما تفرق شمل الرهط عند وفاة «الخان» ؛ أو تظل الشعوب المكونة له تنزل الظلم مدة قرون بالعنصر المغلوب على أمره ، بأن يعودوا كل شتاء للمطالبة بالثمن والنساء . فتنتحط الحضارة بتلك المناطق ، ويصبح السكان خونة أذلاء . على أن الغزاة لا يلبثون حتى يتحولوا رويداً رويداً إلى جنس مختلط ، وحتى يفقدوا إلى حد ما خصائصهم المغولية . وهذا ما حدث مع الإسكنديين الذين عرفهم القدماء ومع المجريين في عصرنا هذا .

وغنى عن البيان أن غزوات هذه الشعوب الألطائية تختلف اختلافاً بعيداً عن المهجرات الجرمانية . إذ إن التيوتوني والروماني جميعاً كانوا ينظرون إلى الهون نظرة الرعب المشوب بالخرافات ويحسون نحوهم بنفور وتقزز . ونظراً لما اشتهر به الهون من السرعة الخارقة ، نسبت إليهم قدرات سحرية ، وبلغ في عدد أفرادهم مبالغة عظيمة . والواقع أن الجزء الأعظم من مقاتلة الهون كان يتكون من أفراد القبائل المهزومة ، ولا سيما الجيبيد ومن معهم من الآلان والقوط والصقالبة وغيرهم ، الذين جرهم الهون معهم في أثناء تقدمهم من جنوب روسية إلى أوروبا الوسطى^(١) . واتخذ الهون مركز قيادتهم في هنغاريا ؛ فإن أتيل ، الذي ورث الحكم في (٤٣٣) مع أخيه بليدا ، الذي يظهر أنه أهمل آخر الأمر ، - كان يفرض سلطاناً قوياً وغير محدود ، ولكنه فعال على كل من القوط الشرقيين والصقالبة المقيمين بجنوب روسية وسائر القبائل الجرمانية النازلة على ضفاف الدانوب . واستطاع من موقعه المتوسط أن يهدد شطري الإمبراطورية بدرجة سواء ، فدأب على المطالبة بعودة اللاجئين،

(١) انظر أول الفصل الثاني من ص ٧٥ .

وعلى أن ينتزع من الإمبراطورية إتاوة ضخمة من الذهب . وإذا انصرف في السنوات الستة الأولى من حكمه إلى الفتوح الصقلبية فإنه امتنع عن الهجوم الصريح على الغرب ، حتى لقد حدث أنه أعار الرومان جنداً مرتزقة من الهون ليقاتلوا عنهم البرجنديين والقوط الغربيين ؛ وفي الحين نفسه استطاع أن يفرض على القسطنطينية معاهدة كلها مذلة وهوان . غير أن العلاقات ازدادت سوءاً بعد (٤٤٠) وشابها شيء من العداوة ؛ وعندئذ هوجمت حدود الدانوب وتعرض شمال بلاد اليونان للنهب الشديد . ولما عقد الصلح في (٤٤٧) طولبت الدولة بتعويضات ضخمة وتقرر جعل الحد الفاصل بين الطرفين عند نيش ، التي تقع على مسافة بعيدة ، جنوب الدانوب .

ثم حدث تغير في (٤٥٠) . إذ تولى الإمبراطورية في الشرق مرقيان ، وأبى أن يدفع للهون بعد ذلك أية جزية . ولم يلبث الغرب أن حذا حذوه . ويبدو أن أتिला عزم في تلك اللحظة على أن يقوم بفتح حاسم . فشق طريقه عنوة عند نهر الراين الأدنى في عيد الفصح من عام (٤٥١) وتقدم إلى أورليان . وكان يأمل أن يلزم القوط الغربيون في أكيثانيا الحياذ . ولكنهم قرروا أن يقاتلوا في صف روما ، فأدى ذلك إلى قلب ميزان المعركة . والتحم الطرفان في سهل مورياك قرب تروى (Troyes) . فلقى ملك القوط الغربيين مصرعه ، ثم اضطر أتिला إلى الارتداد في النهاية إلى معسكره بعد أن تكبد الطرفان خسائر فادحة ، وبذلك انتهت الأسطورة التي تزعم أن الهون قوم لا يقهرون . على أن آنتيوس قائد الرومان أدرك وقتذاك أن القوط الغربيين أشد خطراً على الإمبراطورية من الهون ، وعندئذ أتاح للهون فرصة للنجاة .

وكثيراً ما اعتبر ذلك القتال من الممارك الفاصلة في التاريخ ؛ ولكن الراجح أن جيش الهون كان على كل حال محتوماً عليه التشتت السريع عند وفاة حاكمه وقائده . والواقع أن جغرافية أوروبا ، لا العوامل السياسية ولا العسكرية هي التي أنقذتها من قبضة الحضارة البدوية ، هنا وفي سائر الممارك الأخرى ، ودفعت عنها المصير الذي تعرضت له آسيا ، التي ظلت إلى يومنا هذا غارقة في الهمجية . « فلو أن ألمانيا أو فرنسا كان بها من السهوب ما لهنغاريا ، حيث كان المترحلون يستطيعون منها تزويد أنفسهم بما يلزمهم من طعام ، ثم ينطلقون من ثم إلى ما هم عليه من تدمير ، فالراجح أن ضياء الحضارة الغربية ما كان إلا ليخبو من زمن بعيد ، كما أن العالم القديم لم يكن بد من أن يتبربر ، ولم يكن بد للصين الراكدة الآجلة اليوم من أن تكون على مفرق الحضارة » .
(بايسكر Peisker) .

نهاية إمبراطورية أتिला

تراجع أتिला عند ذاك إلى هنغاريا ، ثم عاد في السنة التالية فغزا شمال إيطاليا ، فسقطت أمام هجماته أ كويليا ومعظم القلاع الأخرى (وإن لم تسقط رافنا بفضل المستنقعات التي كفلت لها الأمن) . ولكن زحفه على روما لم يتم . ذلك أن انتشار المجاعة والمرض بين جنده ووصول الإمدادات الإمبراطورية من الشرق ، كانت أموراً عززت بقوتها البراهين والحجج التي قدمتها بين يديه بمسكركه على نهر منكيو سفارة الرومان برئاسة البابا ليو الأول بجلاله وقوة أثره . وعاد أتिला إلى وطنه ليتجهز لقتال القسطنطينية ؛ ولكنه مات في السنة التالية .

واقسم أبناؤه ميراثه ؛ ولكن شعوب الدانوب فطنوا إلى الفرصة

الساحة لهم وانقضوا كالدثاب الضارية على سادتهم المكروهين . وتزعم الجيبيد سائر قبائل القوط : الروجيين (Rugii) والسويث والهيرول ، فأنزّلوا بالهون هزيمة ساحقة على نهر نيداو (٤٥٣) وطردهم إلى سهول روسيا ، ولم يبق منهم بهنغاريا سوى شراذم متناثرة . وظلت منطقة الدانوب بعد ذلك مائة عام مسرحاً لدوامه دواره من الشعوب المتصارعة ، وكانت دبلوماسية الدولة الرومانية الشرقية تشجع النزاع ، بما نهجته من خطط تقليدية تجاه البرابرة . وعندئذ سيطر الجيبيد وهم من شعوب الجرمان الشرقيين على هنغاريا ورومانيا ، وتنازعوا مع القوط الشرقيين النازلين آنذاك في غربهم على امتلاك مدينة سيرميوم (وهي لا تبعد كثيراً عن بلغراد) التي كانت تتحكم في الطريق الروماني العظيم الممتد من الغرب إلى الشرق . ويظهر أن الجيبيد بلغوا مرادهم عند وفاة ثيودوريك العظيم في (٥٢٦) ؛ ولكن ظهر في ذلك الوقت مطالبون جدد بالسيادة هم اللومبارد ، فغير موقف الدانوب بأجمعه . فتألف تحالف بين الجيبيد واللومبارد ، ولكن المصالح المتضاربة كانت أقوى من كل شيء . ونشبت بين الفريقين حروب مريرة طويلة الأمد ، انتهت في (٥٦٧) بهزيمة الجيبيد نهائياً ، فلم يلعبوا بعد ذلك دوراً في التاريخ .

القوط الشرقيون

وكانت الأراضي الممتدة شمال البحر الأسود بين نهر الدنيستر غرباً ونهر الدون شرقاً (أي بين منازل القوط الغربيين ومنازل الآلان) يحتلها في قريب من (٣٥٠) القوط الشرقيون المعروفون بشدة المراس بقيادة ملكهم إرماناريك ، الذي لم تكن له إلا سيادة ضعيفة على قبائل الصقالبة النازلة إلى الشمال منهم . وقضى الغزو الهوني على تلك الإمبراطورية ، ودفع القوط غرباً ،

فساروا ثللا من اللاجئين إلى البلقان . على أن كثيراً من القوط الشرقيين لم يلبثوا بعد وقفة غير موقفة لهم على نهر الدنيستر ، أن انجازوا إلى أقاربهم القوط الغربيين فعبروا جميعاً نهر الدانوب^(١) ، وأسهموا في القتال الذى نشب فى أدرنه (٣٧٨) . وفى (٣٨٠) عقدوا حلفاً مع ثيودوسيوس الأول ، ومنحوا مستقرات بهنغاريا الدنيا . ومع أنهم لم يزالوا تحت سيطرة الهون الذين كانوا بسطوا سلطانهم على هنغاريا ، فإنهم باتوا الآن متحدين تحت ملك واحد ، ثم تحت حكم أبنائه الثلاثة من بعده ، ولم يشذ عن ذلك إلا جماعات متناثرة دخلت فى خدمة الرومان ، أو أولئك الذين انجازوا إلى الجيوش المختلطة التى فى خدمة راداجيسوس والتى شنت هجوماً مباغتاً وخطيراً على إيطاليا (٤٠٤ - ٤٠٥) فسحقهم استيليكو على مرتفعات فيسولى . وقد كانوا بوصفهم حلفاء تابعين يقاتلون مع أتيليا عند سهل موريالك ، ولكنهم لعبوا دوراً بارزاً فى ائتلاف الشعوب الذى قضى على الهون بعد وفاة أتيليا ، وازدادوا صلابه وصموداً فيما تلا ذلك من حروب مع قبائل الدانوب . وفى (٤٧١) أصبح ثيودوريك الملقب فيما بعد بالعظيم — من زعمائهم . والمعروف أن ثيودوريك قضى عشر سنوات من حياته وهو صبي رهينة بالقسطنطينية ، ولا بد أنه قد تعلم الشئ الكثير عن تنظيم الدول المتحضرة ، شأن الأريك (الذى تماثل حياته من كثير من الأوجه) ، وإن ظل حتى نهاية أيامه أمياً لا يكتب ، فإذا شاء التوقيع باسمه اضطر إلى استخدام روم^(٢) من ذهب .

وبعد أن استنفد قومه كل موارد بانونيا تحركوا حوالى ذلك الزمن

(١) انظر ف ٢ بعنوان "قوط ليريون ص ٨٤ .

(٢) الرسوم لوحة مثقبة الحروف المطلوبة لكتابة الاسم . (المترجم)

إلى جوار سالونيكاً ، ومن هناك ظلوا يمارسون ضغطاً مستمراً على العاصمة (القسطنطينية) . وشهدت السنوات العشر التالية صراعاً ثلاثياً مستمراً بين الإمبراطور زينون وبين ثيودوريك وبين ثيودوريك آخر لقب استرابون (وهو أيضاً قوطى شرقى) كان قائداً لكثيية من بنى قومه تعمل فى خدمة الرومان . وكانت سياسة الإمبراطور تأليب ثيودوريك هذا على سميهِ ؛ ولكن عند وفاة ثيودوريك استرابون فى (٤٨١) ، لم يكن بد من البحث عن وسيلة أخرى لتخليص القسطنطينية من المعونات المالية الفادحة التى لا بد لها من أدائها . وقد حكم أودواكر^(١) إيطاليا منذ (٤٧٦) ولكن زينون لم يعترف به إلا اعترافاً شكلياً ، وظل يترقب سنوح فرصة يسترد بها سيطرته على الغرب . ولسنا نخال بعد الذى خبره زينون من ثيودوريك ، أنه توسم فيه أن يكون أطوع كنائب ملك من أودواكر ؛ على أنه جعل الاعتبار الأول تخليص إلبيريا من ذلك الكابوس الساحق ، فقدر أنه إذا دمر كل من أودواكر و ثيودوريك أخاه ، كان فى ذلك الخير كل الخير .

وتقبل ثيودوريك المهمة المنوطة به وانطلق إلى إيطاليا فى (٤٨٨) سيداً لجند الإمبراطور ، يقود جيشاً مخلطاً من القوط الشرقيين ومن غيرهم من المغامرين . والتحم الطرفان فى المعركة الفاصلة على نهر أدا فى أغسطس (٤٩٠) فهزم أودواكر هزيمة منكرة فبادر بالالتجاء إلى رافنا المنيعه . وعند ذلك قرر مجلس السناتو الرومانى أن يؤيد ثيودوريك ، واعترف به حاكماً على إيطاليا . وكانت هناك عدة مدن لا تزال تناصر أودواكر وتسانده ، فنجح ثيودوريك فى استشارة السكان الرومان للقيام بمذبحة شاملة فى حامياتها البربرية . وفى تلك

(١) انظر الفصل الثالث بعنوان : « القرن الخامس فى الغرب » س ١٠٤ .

الأثناء كان الوندال أيضاً يعيشون فى صقلية فسادا وتدميراً ، وبعد قتال مرير أُجبروا على التخلي عن مطالبهم فى الجزيرة . ولكن كان هناك فى النهاية شخص أودواكر وله وزنه الذى لا بد للقوم أن يحسبوا حسابه . واستهل ثيودوريك آخر مرحلة من فتوحه عندما بدأ حصار رافنا الذى دام ثلاث سنوات .

وقد تأثر خيال الجرمان بهذه المدينة العجيبة ، إذ تشيد بدكرها حلقات المجموعة الملحمية العظيمة التى تدور حول ثيودوريك . ولم تكن رافنا حتى الأمس القريب إلا مدينة خربة خيم عليها الصمت ، وكانت تتألف من مجموعة من أبراج الأجراس تقع فى سهل وخم موحل من المستنقعات الوبيئة بالملايا وحقول الذرة التى تخترقها القنوات البطيئة التى كاد يسدها القصب (البوص) وأزهار النيلوفر المائية . وهى لا تزال تحتفظ إلى اليوم بشيء من مجدها السابق . فإن كنيسة القديس فيتالى — وهى أفخم كنائسها — المتوهجة بالفسيفساء المرصعة بالجواهر والرخام الشفاف ، إنما ترجع إلى عهد جستينيان يوم ارتقت رافنا ذروة جلالها . ومع ذلك فإن صيتها ذاع طوال أربعة قرون باعتبارها مقراً لقيادة أسطول روماني . لقد كانت مياه الأدرياتى تتخللها وكانت معابدها ومخازنها تقوم على جزر تحيط بها القنوات شأن البندقية اليوم . وأنحسر البحر عنها شيئاً فشيئاً ، ولكن المدينة لم تكن فى تلك الأيام متصلة بإيطاليا نفسها إلا بطريق مكون من جسر طويل يخترق المستنقعات ويمضى إلى داخل المدينة نفسها فيقود المسافر إلى معاقل مرفأ كلايس البحرى ومنارته . وقد ظلت المدينة زهاء قرن مستقراً ومقاماً للإمبراطور وحاشيته . فأقام بها هونوريوس وقالنتيان الثالث الإمبراطوران الوانيان اللذان لم يكونا سوى أطياف ظلال . وقضيا

فيما حياتهما الوداعة ، بين مؤامرات النساء والخصيان والقساوسة ورجال البلاط ، بعيداً عن مشار النقع ودوى الضجيج في عالم متقلب متغير ، عالم قاد فيه استيليكو وأميتيوس آخر كتائب الرومان على المغيرين .

وهنا في بناء صغير بشكل الصليب تأتلق على جدرانهِ وسقفهِ نجوم من الذهب مرصعة فوق خلفية لا زوردية داكنة ، يرقد «الناووس» الضخم الذي يضم رفات جالا بلاسيديا . وهذه الأميرة الرومانية التي كانت حياتها مرآة تعكس تاريخ زمانها ، هي ابنة ثيودوسيوس الأعظم وشقيقة أركاديوس وهونوريوس إمبراطورا الشرق والغرب . وقد أخذت أسيرة يوم نهبت روما ، وأصبحت زوجاً لأتولف ملك القوط الغربيين ، ثم صحبته إلى فرنسا وأسبانيا . ثم تزوجت بعد ذلك قسطنطيوس القائد الروماني ، وبعد وفاته و وفاة أخيها هونوريوس أصبحت الحاكم الفعلي للغرب مدة خمس وعشرين سنة في أثناء الوصاية على ابنها الصغير المتأنت فالنتينيان الثالث فضلاً عن مدة حكمه الضعيف . وإن جمالها الذائع الصيت ، وتقلبات الحظ بها ، صورة آشتبك آشتبا كآ عجيبا بمصائر أوربا الغربية ، لتجتمع لتجعل منها أشد شخصيات ذلك القرن رومانسية . بيد أن لها ناحية أخرى لا تقل دلالة على الزمان . فبتأثيرها ، أصبح جو البلاط كثيفاً بما انعقد فيه من سحب بخور التصوف الديني . ولعل ميادين المعارك الدائرة على الحدود ليست هي الموضع الذي نلحس فيه ما حفلت به هذه الفترة الغامضة من التاريخ من أطياف معنمة ، بل في ظلام مقبرة جالا بلاسيديا . ذلك بأن دوافع تلكم الأطياف ستظل سرّاً دفيناً إلى الأبد ؛ غير أن بصيصاً من الفهم قد يطرق على الفجاءة أبصارنا عندما تقع على الرموز السرية والأشكال المقدسة للجام والغزلان والشاء والعيون والأزاهير والكروم المنضفزة المتشابكة

بعضها في بعض ، والإنجيليين والقديسين ، التي تلمع وسط الظلماء وتسكنهن
بسعادة غير دنيوية .

وكانت رافنا آنذاك تحتفظ بأسرارها كسأناها اليوم . ولما لم يستطع
ثيودوريك اختراق الحصون ، تقام مع أودوا كر . واتفقا على شروط الصلح .
وبمقتضاه أصبحا شريكين في الحكم في إيطاليا معاً بدرجة متساوية . ويبدو أن
الأول منهما (ثيودوريك) كان يضم في نفسه الغدر . فبعد دخوله بعشرة أيام
دعا أودوا كر إلى وليمة . وبينما هما مستويان إلى المائدة ، ركع رجلان بمظلمة أمام
أودوا كر وأمسكا بيديه . فاندفع جند ثيودوريك المختبئون ، ولكنهم ترددوا
في القضاء على الرجل الشيخ . فتقدم ثيودوريك بنفسه وشهر سيفه . وصاح
أودوا كر قائلاً : « أين الله ؟ » فقال ثيودوريك : « أنت فعلت هذا بأصدقائي » ،
ثم شقه بسيفه من الترقوة إلى القطن . ودهش ثيودوريك للضربة التي صدرت
منه فصاح قائلاً : « ليس للشقى عظام في جسده » . وكانت الأوامر صدرت
قبل ذلك بإعمال الدبح في المرتزة الأعداء ، ومن بعدها لم يلق ثيودوريك
أية مقاومة لادعائه السيادة العليا بإيطاليا .

الفصل الثالث

التقاء الحضارتين

القرن الخامس في الغرب

عالج الفصلان السابقان عالم الرومان وعالم البرابرة في (٣٩٥) . وكان لزاماً علينا تسلف الحوادث بترسم خطى الشعوب البربرية الرئيسية كلا على حدة بقدر الإمكان . فماذا كانت نتيجة الصدام بين التقاء الحضارتين الرومانية والجرمانية ، كما يتجلى في التاريخ المضطرب في القرن الخامس ؟ ولعل الأفضل أن تسمى العملية باسم عملية التعجيل بتطور تدريجي ؛ إذ لا بد لنا من تذكر أن سكان شطر عظيم من الإمبراطورية كانوا بالفعل برابرة ، وأن المنصر الجرمانى قد غلب على الجيش الرومانى ، وأنه لم يكن بين زعماء المغيرين باستثناء جزريك (جيسريك) فيما يحتمل ، من كان يريد للإمبراطورية السقوط .

ومن المستحيل أن ندلى بتفسير سيكولوجى لتصرفات الشخصيات الرومانية الرئيسية في هذه الفترة ؛ إذ كان الدخول محظوراً إلى بلاطات رافنا والقسطنطينية ، حيث كان يتربع ابنا ثيودوسيوس الإمبراطور المقاتل ، على عرشيهما كأنهما أميران شرقيان محليّان بالجواهر في غرفات مقدسة عليها حُرّاس حراس يحمونها من العالم الخارجى . والحق إن « هذين الأميرين الصغيرين المسكينين ، وهما زهرتان شاحبتان من زهرات الشباب » ، كما يقول دو كين (Duchesne) لم يكونا إلا مركزاً للعوامات العديدة التى

كانت تحاك في البلاط ؛ ولكن معرفتنا بهذه المؤامرات لا تزيد عن هذا بكثير . وكان أقرب الناس إلى الإمبراطور هو كبير الأمناء (الحجاب) ، وهو خصي ، بيده إدارة القصر الإمبراطوري ، وكان بما يلجأ إليه من توسيع مجال عمله وإدارته يزيد في الحكم الشخصي للإمبراطور على حساب الإدارات الكبرى في الدولة . ولكن حدث في الغرب أن أصحاب الأملاك الإقطاعيين بفرنسا وإيطاليا بلغوا من القوة والنفوذ ما جعل الحكومة المركزية تعجز عن التغلب عليهم ؛ فأما في الشرق فإن رؤساء الإدارة الحكومية ، ومعظمهم من أصل وضعي — لم يظهروا إلا مقاومة ضئيلة لاستبداد الملكية البيزنطية ، فصار لكبير الأمناء (الحجاب) صاحب القوة المطلقة مثل يوتروبيوس ، الحرية في أن يختار زوجة للإمبراطور أو أن يتآمر مع القادة الخونة . ومع ذلك فإن رجال البلاط والموظفين بكل من القصرين كانوا يؤلفون حزباً قوياً يدعو في بعض الأحوال بأعلى صوت إلى اتخاذ التدابير لمناهضة الجرمان . وكان لنساء القصر دور عظيم — ولكنه لم يبلغ من الضخامة المنزل التي صورها خيال وعاطفة المؤرخين البيزنطيين الذين أرادوا أن يحملونا على تصديقه — فكثيراً ما كن يتحكمن في ضعاف الأباطرة بنفس الطريقة التي كان يتحكم بها فيهن مستشاروهن الروحيون . والجو كله مغم بالمشاهد والبحث عن المصالح الذاتية . والجواسيس منبثون في كل مكان وذوو الخطوة يرتفعون ويسقطون . ولا يتبدى في الجو تمسك بأي مبدأ خلق ، ولا طمأنينة لأية صداقة .

وتقف قبالة هاته الخلفية طائفة من الشخصيات العظيمة ، هي شخصيات « سادة الجند » في القرن الخامس . وفي أيديهم السلطة الحقيقية ، إذ تعتمد (٧ - العصور)

مصائرهم الإمبراطورية على الجيش الذى يخضع لسلطانهم . ولما كان معظمهم من البرابرة ، فلم يكن فى إمكانهم ، شأن القواد فى القرن الثالث ، خلع الإمبراطور والانشاح بالأرجوان . كانوا موضع السكراهية والخوف من الأباطرة والحزب المناهض للجرمان ، على أنهم كانوا سنداً لا يستغنى عنه وقوة بالغة القدرة . وكثيراً ما كان هذا البغض يتغلب على سائر الاعتبارات الأخرى . إذ إن هونوريوس يأمر بإعدام استيليكو (٤٠٨) ويقضى فالتنتيان الثالث على آمتيوس (٥٤٤) ولا يلبث حتى يلتقى نفس المصير بعد ذلك بقليل . وفى المرحلة التالية يكون المتصرف فى الشئون هو « سيد الجند » ريكيمر (المتوفى ٤٧٢) ، فهو الذى يقيم أباطرة ضعافاً فيقتلهم أو يخلعهم إذا أظهروا نفاراً ومغالة فى الاستقلال . وأخيراً يتخلص أودواكر من الإمبراطور (٤٧٦) ويحكم إيطاليا حكماً شخصياً ككنايب ملك بالاسم للسلطة الحاكمة بالقسطنطينية .

القرن الخامس فى الغرب

ظل نجم استيليكو متربهاً فى كبد السماء من (٣٩٥) إلى وفاته فى (٤٠٨) . وقد ظل يتهم على الدوام بالخيانة ؛ وليس عسيراً علينا أن نرى أسباب تلك الاتهامات . فإنه سمح لألاريك عدة مرات بالانسحاب ، وذلك ببلاد اليونان (٣٩٧) وبإيطاليا (٤٠٣) على حين أنه كان بوسعه على وجه التحقيق أن يدمر قواته ويقضى عليها ، وبذا حال دون سقوط روما فى (٤١٠) . يضاف إلى ذلك أنه لم ينقذ غالة من الغزو الرهيب فى (٤٠٦) ، وهو موقف ترك ولايتين فريسة لتدميرات الوندال وحلفائهم . ويبدو أنه كان يدير سياسته على ثلاثة أسس . فإنه كان القراع البنى لثيودوسيوس ، حتى لقد عين وصياً على ابنه الصغيرين فى (٣٩٥) . وكان الولاء الشخصى من خصائص الجرمان ، ولم يداخل التردد

قط قلب استيليكو في ولائه لبيت ثيودوسيوس . أجل إنه ربما استخدم جميع الوسائل ليز أرКАДيوس ويعلو عليه ، ولكن شخص الإمبراطور لم يتعرض لأذى خطر . ومن الحقائق الجديرة بالذكر أن استيليكو لم يأذن بقيام أية مقاومة عندما أصدر هونوريوس أمره بإعدامه . وكان الأساس الثاني لسياسته ، وهو الأساس الذى لعله قد تبناه مؤخراً عندما حطم الانتقاض على الجرمان في القسطنطينية آماله ، هو عقده العزم على الحصول لنفسه على الولاية (Prefecture) على إلبيريا^(١) — (وهى بلد حافل بالرجال اللازمين للجندية لا يُقوم بشمن) — لضمها إلى الجزء الغربى من الإمبراطورية . ولكى يبلغ هذا الهدف عمد إلى استخدام قوات ألاريك ؛ وكانت نتيجة محاولته فى هذا الصدد أن أعلنت حكومة أرКАДيوس أنه عدو للشعب : ومن أجلها ضحى بغالة وتركها فريسة للهجوم البربرى الذى كان واجبه يحتم القضاء عليه . وقد فرض الأساس الثالث عليه فرضاً لا لشيء إلا لكونه بربرياً . وطبيعى أن النمو السريع للتنفوذ الجرمانى فى أروقة الجهات العليا كان يحظى باستحسانه ؛ منذ كان للجرمانى الحق فى الحصول على نفس المكانة التى يرقى إليها الرومانى داخل الإمبراطورية . وربما كان فى هذا تعليل لرأيه فى ألاريك ، واعتباره إياه حليفاً نافعا ، لا عدواً عاماً ؛ ومن المحقق أن ذلك الأساس هو الذى دفعه إلى تأييد جائناس والحزب الجرمانى بالقسطنطينية ؛ كما أنه يفسر تماماً عداوة المحافظين الرومان ، التى أوردته حفته آخر الأمر .

وشهدت المدة التالية (٤٠٨ — ٤٢٣) تأسيس مستوطنات البرابرة بالمهاجرين بكل من غالة وأسبانيا ، ويرجع الفضل فى إدارة دفعة هذه الحركات^(٢)

(١) انظر التذييل .

(٢) انظر : « البرابرة فى فرنسا وأسبانيا » من الفصل الثانى .

بمهارة إلى قسطنطينوس « سيد الجند » الرومانى الذى تزوج من جالا پلاسيديا فى (٤١٧) ، فولد له منها فالنتينيان الثالث . وجهوده بإقليم غالة تعتبر فى الدرجة الأولى من الأهمية . فإن ما تفخر به فرنسا اليوم من أنها قطر لاتينى ينبغى أن ينسب جزئياً إليه ، فهو صاحب الفضل فى تمكين البرابرة من الاستقرار بدرجة نسبية من السلام بالأراضى الرومانية ، حيث تشرّبوا قوانين السكان ونظمهم . واتخذت ترتيبات عسكرية جديدة بشمال غربى غالة ، وهياً إنشاء مجلس الأقاليم السبعة فرصة طيبة لإقامة بؤرة لتنفيذ الرومانى ، وكان ذلك المجلس يعقد فى آرل كل عام ، ويحضره ممثلون عن كل من المنطقتين الرومانية والقوطية الغربية .

وتوفى قسطنطينوس فى (٤٢١) ، ومات الإمبراطور هونوريوس فى (٤٢٣) . على أن ظلاً قوياً لآثقيوس « آخر الرومان » قد خيم على الثلاثين سنة التالية (٤٢٣ — ٤٥٣) . وهذا اللقب يبرره ما كان له من الشخصية وما قام به من أعمال . غير أنه دأب على معارضة « الحزب الرومانى » براثناً ؛ كما أنه نصب نفسه عدواً لجالاپلاسيديا والقائدين المنافسين له ، فيليكس وبونيفاس ، ولم يكن ذلك إلا بفضل مساعدة مرتزقته من الهون . وقد ركز كل اهتمامه على غالة ؛ ولما حاول القوط الغربيون بسط نفوذهم إلى إقليم بروفانس ردهم على أعقابهم ؛ أما مملكة البرجنديين بورمس التى كانت تغير على جيرانها للنهب فقد أزالها من الوجود (٤٣٦) بفضل جند الهون المرتزقة . (وكان واضعو ملحمة نيبيلونجلىد^(١) « Nibelunge lied » .

الجرمانية يعتقدون أن ذلك كان من عمل آتيل — ما لم يكن « إنزل » تركيباً

(١) قصيدة جرمانية عن القرون الوسطى كوت من مصادر أقدم منها وتتحدث عن ملوك ورمس وما حولها وعلاقاتهم بآتيل . (المترجم)

مزجياً لاسمى آتيلاً وآنثيوس) ، ومن ثم أقامت البقية الباقية منهم بإقليم ساقويا . ومن سخریات القدر ، أن آنثيوس هو الذى التقى بغزوة آتيلاً فى (٤٥١) ، وتمكن بمساعدة القوط الغربيين من تحويل وجهتها ثانية إلى وادى الموريك — وبعد ثلاث سنوات طعنه فالنتينيان الثالث فى قاعة المجلس . ثم تم القضاء على بيت ثيودوسيوس بمقتل فالنتينيان نفسه فى السنة التالية .

والآن بلغت الأمور آخر مداها . فجلس على العرش فى مدى عشرين عاماً ما لا يقل عن تسعة أبطرة ضعاف ، ينصبهم ويخلعهم « سادة الجند » (٥) ريكيمر وخلفاؤه . فبهاجم الوندال إيطاليا دون أن يمسه قصاص ، ويستولون على روما نفسها ويطلقون فيها أيديهم انتهاباً . ويضمحل كل أثر لسلطات الرومان فى غالة وأسبانيا بعد اغتيال الإمبراطور ماجوريان الذى أظهر من بالغ الكفاية ما لم يقره ريكيمر صاحب الفضل فى إجلاله على العرش . ومنحهم أودواكر أحد زعماء مرتزقة الجرمان المحالفين بإيطاليا ، ما طلبوه من الحصول على مستوطنات فوق الأراضى الإيطالية ، كما فعل غيرهم من البرابرة بإقليمى غالة وأسبانيا ، فأعلنوه ملكاً عليهم فى (٤٧٦) . وكانت نتيجة ذلك أنه أغفل رومولوس أوغسطولوس الإمبراطور الطفل الذى عينه سلفه (وذلك لأن نيبوس الحاكم الشرعى ، الذى اعترف به الشرط الشرقى للإمبراطورية ، كان قد فر إلى دالماتيا قبل ذلك بعامين) . وظل أودواكر حتى مجئ ثيودوريك يحكم إيطاليا مثلما حكمها ريكيمر ، غير أنه حدث بعد وفاة نيبوس فى (٤٨٠) أن السيد والإمبراطور الدستورى للبلاد لم يعد ملكاً ضعيفاً يقيم بروما أوراثنا ، بل صار الإمبراطور الذى يقيم بالقسطنطينية ، الذى كان أودواكر يعمل فى خدمته نائباً ملكياً من الناحية النظرية .

(٥) يقال لأرأحد منهم سيد الجند أو مقدم الجند . (المترجم)

الشطرن الشرقي

ومن الغريب أن تاريخ الشطرن الشرقي للإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس ، يسير موازياً لتاريخ النصف الغربي . بل إن الأزمات في الشرق تزيد - فيما يبدو - شدة وخطورة ؛ بيد أن الدولة تتغلب عليها بنجاح . وسنعمد الآن إلى تقصى أوجه التباين بين الشقين الشرقي والغربي . ففي (٤٠٠) بلغ نفوذ الجرمان بالقسطنطينية أقصى ذروته . إذ أمكن التخلص من روفينوس الوالي اليراني وري والخصي يوتروبيوس كبير الحجاب . فأضحى الحزب الروماني رغم مساندة الإمبراطورة يودوكسيا عاجزاً لاحول له ولا قوة . وهنا انتقلت مقاليد السلطان إلى يد جائناس « سيد الجند » المتبربر ؛ وكانت جنده تعسكر داخل العاصمة ؛ وربما انتعشت آمال استيليكو في تلك اللحظة ، سيما وقد كان يتبع سياسة مماثلة لسياسة جائناس ومتفقة معها تماماً . ولكن العواصف والاعود كانت تملأ رحاب الجو . فإن جند القوط كانوا من الوقحاء ، وأنكى من ذلك وأشد نذيراً بالثبور أنهم كانوا من الأريوسيين الهراطقة . ولم تلبث العاصفة أن هبت في إحدى ليالى الصيف . إذ حدث بالمدينة شجار صاحب ، لم يلبث أن انتشر في كل أرجائها . وأغلقت البوابات وطارد السكان الجنود وأعملوا فيهم الذبح ، أو أحرقوهم أحياء بالسكنيسة التي لجأوا إليها . وفي تلك الليلة انقصمت قوة الجرمان إلى الأبد . وبعد ذلك بضع سنوات تحرك إلى الغرب خطر القوط الغربيين بعد أن ظل منذ معركة أدرة كغمامة قماما تظلل البلقان ، تحرك غرباً عندما وجه ألامريك خطواته نحو إيطاليا .

وتولى العرش بعد أركاديوس وهونوريوس أميران لا يقلان عنهما ضعفاً وعجزاً ، هما ثيودوسيوس الثانى وقالنتيان الثالث . وانغمس بلاط الشطر الشرقى ، بتوجيه الحشد الكبير الذى يعمره من النساء ، فى النزاع المذهبي بين القسطنطينية والإسكندرية ، وهى معركة ضخمة لما يترتب عليها من عواقب سياسية^(١) - وحوالى ذلك العهد اشتد ضغط الهون على الشرق أكثر منه على الغرب ؛ فأعملوا فى ولايات الشرق نهباً ونحريراً ، وأبهظوا سكانه بفادح الضرائب المدمرة ليحصلوا على المقررات المالية المطلوبة . ثم عاد الخطر فانحرف للمرة الثانية غرباً ، ثم تلاشى عقب وفاة آتिला . بيد أن اقتراض أسرة ثيودوسيوس تلاه ظهور أباطرة على جانب كبير من الكفاية (فى الشرق) ؛ على أن تدارك الموقف فى الغرب كان أوانه فات . فلم يستطع ماجوريان أن يفعل شيئاً لإزاء وجود بربرى مثل ريكيمر . أما فى الشرق ، فإن ما اجتمع فى أيدي سادة الجند من سلطة خطيرة ، قد تعرض لعوائق عديدة . فما كان لأمثال استيليكو أو آثنيسوس من سلطة مطلقة على جميع الموارد العسكرية بالبلاد : الجيش الدائم وقوات الثغور على السواء ، لم يكن أمراً تميزه القسطنطينية^(٢) بأية حال . وكان تهديد الوندال لإيطاليا من الخلف يزيد من اعتمادها على جيوشها ؛ ولم تنعرض القسطنطينية لمثل هذا الخطر الداهم . فلما تجدد ظهور الخطر الجرمانى ، اكتشف الإمبراطور ليو (لاوون) وخلفاؤه من القوى المضادة الفعالة ما يردده ويكبح جماحه .

وكل ما كان يطمع فيه عادة سيد الجند من البرابرة هو أن يتزوج أميرة من البيت الإمبراطورى . وبلغ تلك الغاية أسباط القائد الآلانى القوى،

(١) انظر ص ٧٠ بعنوان العداء بين القسطنطينية والإسكندرية .

(٢) انظر التذييل ١ .

الذى دبر عند وفاة الإمبراطور مرقيان (٤٥٧) تنصيب صنيعته ليو على العرش الإمبراطورى وأجبره بعد مصانعة طويلة للظروف ، أن يزوج ابنته من ابن أسبار ، راجياً بذلك أن يخلفه على العرش الإمبراطورى . ولكن ليو كانت لديه خطط أخرى قد دبرها . إذ استدعى إلى العاصمة فصائل قوية من الإيسوريين ، وهم عنصر جبلى شديد المراس من أحد أقاليم آسيا الصغرى ، فأضحى قائدهم تاراسيكوديسا (وهو الاسم الأصلي لزينون إمبراطور المستقبل) « سيداً آخر للجند » إلى جانب أسبار ، وتزوج من ابنة ثانية للإمبراطور ليو . وتألف حرس خاص جديد للإمبراطور ، معظمه من الإيسوريين وبذلك قام جهاز يصلح لتدبير انقلاب عسكرى ، غير أن ليو تردد فى استخدامه . وكان نفوذ أسبار يزداد فى تلك الأثناء قوة ، على حين أن الدولة لم تستطع ، وقد أضعفها الإخفاق الباهظ الذى منيت به الحملة البحرية التى سیرت على الوندال (٤٦٨) — أن تقوم بأية مقاومة له . وأخيراً حانت ساعة العمل . فاغتيل أسبار غدرآ بإحدى الولائم وتمزقت شيعته بدءاً ، على حين أن الحرس الجديد قضى على محاولة قام بها أشياخ أسبار للهجوم على القصر (٤٧١) . على أن القبائل القوطية التى كان أسبار يعتمد عليها كانت تملأ تراقياً بما رحبت ، وظلت بقيادة زعيمها ثيودوريك استرابون^(١) تواصل على الدوام تهديد العاصمة . وكان الإيسوريون طائفة مكروهة من الناس ، وعندما عمد حزب البلاط بمساندة جند ثيودوريك ، إلى إقامة مرشح آخر منافس ، كان لزاماً على زينون ، الذى أصبح وقتذاك إمبراطوراً ، أن يفر إلى موطنه إيسوريا . وهنا أيضاً فى القسطنطينية كان العلاج الناجع فى متناول اليد . ذلك أن ثيودوريك الآمالى (الذى أصبح فيما بعد ثيودوريك الأكبر) ،

(١) انظر ف ٢ بعنوان : « القوط الشرقيون » .

وهو ملك القوط الشرقيين في مقدونية ، كان على أتم استعداد لمنافسة سمية (ثيودوريك استرابون) فيما يتطلع إليه من ألقاب القسطنطينية وأموالها .
شجّل معونته عاد زينون إلى العرش والسلطان ؛ وبتأليب الزعيمين أحدهما على الآخر ، لم تتحقق لأى منهما السيادة ؛ ولم يلبث زينون بعد وفاة ثيودوريك استرابون ، أن دبر أمر إيفاد ثيودوريك الآمالى لفتح إيطاليا^(١) .

لقد زال الخطر الجرمانى ؛ ولكن بقيت أخطار أخرى . ذلك أن إيسوريا كانت بؤرة عصيان وفتنة . وظهر البلغار المترحلون في حوض الدانوب الأدنى . وأخذت النزعات القومية تنمو ويصلب عودها بأرمينية وسورية ومصر . وأخذ العرب يغيرون على التخوم الشرقية والبلميون^(٢) (Blemmyes) على الأطراف الجنوبية . وقد شل قراصنة الوندال حركة التجارة في البحر المتوسط . ولكن هذه لم تكن إلا صعباً هينة . ولم تعد فارس مصدر متاعب للإمبراطورية لانشغالها بغزوات الهون . على حين أن نفوذ البرابرة داخل الإمبراطورية قد كبح تماماً . وبذا لم تبرح الإمبراطورية قائمة عند نهاية القرن .

كلوفيس وفتح غالة

ولم تنقضى سنوات كثيرة حتى حاول المتحالفون في غالة بسط حدودهم^(٣) .
فإن القوط الغربيين نزلاء أكتانيا ، الذين أحبط ماچوريان محاولاتهم الاستيلاء على ساحل الريفييرا العظيم القدر ، حولوا وجهتهم إلى أسبانيا ، ولم يلبثوا حتى

(١) من شاء تفصيل هذه الأحداث فلينظر للمترجم . « الحضارة البيزنطية » تأليف رانسبان (الألف كتاب) (المترجم)

(٢) البلميون . قبائل تسكن جنوب مصر . (المترجم)

(٣) انظر ف ٢ القسم المعنون « البرابرة في فرنسا وأسبانيا » .

احتلوا البلاد كلها عند (٤٧٦) باستثناء إقليم جليقية ، الذى صمد لهم فيه السويف . وحوالى ذلك تعرضت بروقانس لهجوم قوى . ولما لم تستطع إيطاليا إرسال أية مساعدة ، أصبحت ممتلكات القوط الغربيين بقيادة يوريك فى أقصى اتساع لها ، فامتدت من مضيق جبل طارق إلى مصب اللوار ومن المحيط الأطلسى إلى جبال الألب . وفى تلك الأثناء استولى البرجنديون فى سافوى على مدينة ليون ، وصار فى قبضة أيديهم حوض الرون بأكمله من جنيف إلى أفنيون . وكان جلياً حتى ذلك الحين أن الفرنجة السالين أدوا واجبهم كجند مرتزقة متحالفين . وكان ممثل روما بشمال غالة شخصية بالغة الغرابة ، تمثل صفات ذلك الزمان . إذ إن آيچيديوس ممثل روما عين فى عهد ماجوريان قائداً للجيش الرومانية فى غالة . وانقطعت عليه السبل إلى إيطاليا بسبب وجود الممتلكات القوية التابعة للقوط الغربيين والبرجنديين ، فأصبح بذلك حاكماً مستقلاً ، ثم خلفه فى هذا الوضع الشاذ ابنه سياجريوس ، الذى اتخذ سواسون عاصمة له . وكان البرابرة يعرفونه باسم ملك الرومان (Rex - Romanorum) — وهى عبارة لا معنى لها عند الرومان . وكان شلديك وهو من رؤساء الفرنجة السالين أعان القوات الرومانية على اللوار فى صد السكسون المغيرين ورد هجمات القوط الغربيين المتجهة شمالاً . وأدرك بوضوح ميزة الاحتفاظ بشمال غالة مفتوحاً أمام زحفه . وفى تلك الأثناء كان الفرنجة الريبواريون ينتشرون على يمين الراين ويساره من مراكزهم فى كولن وماينز .

وفى (٤٨٢) توفى شلديك ، وخلفه على العرش ابنه كلوفيس وقد بلغ من العمر ستة عشر عاماً . وقد كابت شخصية هذا العبقري العجيب شيئاً من

التشويه من كثرة ما رُدِّدت في ملاحم الساجا التي وضعها المعجبون المعاصرون له . فإنهم عبدوا فيه بطلا صورته أخيلتهم ؛ وبذا صيغ ما اشتهر به الفرنجة من وحشية ومكر وغدر في أبلغ صورة ممثلاً في شخصية كلوفيس الأسطورية . والراجح أن الصورة هنا أدق من تلك التي دمجها عنه الكاثوليك بوصفه المدافع النشقي عن الدين ، الذي يشن حرب الهدى والنقي على الهرطقة والوثنيين . ولكن واحدة منها لا تنصفه . فإن عظمتها الكاملة لا تتجلى إلا فيما أنجز من أعمال جليلة ، غيرت وجه بلاد غالة في أقل من ثلاثين سنة . فلم يعد للالتزامات التي تقيد بها المحالفون أية قيمة ، وكان سياجريوس أول غرض لهجوم المخالفين . وإذا تعرض سياجريوس لهزيمة ساحقة قرب سواسون ، فإنه فر إلى القوط الغربيين ، غير أنهم أسلموه إلى كلوفيس تحت التهديد ، فأمر بإعدامه . وسرعان ما سقط في يد الفرنجة كل ما يقع من فرنسا شمال نهر اللوار (باستثناء إقليم بريتانى الذي حافظ على استقلاله قبائله الكلتية يماونها لاجئون رومانيون بريطانيون) . وفي الآونة نفسها ، تمكن كلوفيس باستخدام أساليب القتل والفتح أو المكيدة الحربية من بسط سيادته على سائر السالبيين ، وما لبث أن تهيأ له بنفس الوسائل إضافة الفرنجة الريواريين إلى إمبراطوريته ، ثم دفع الألمان إلى ما وراء الراين بعد قتال مرير .

على أن حادثاً خطيراً وقع قبل إتمام هذه الأعمال — وهو تعميد كلوفيس على المذهب الكاثوليكي . وستظهر فيما بعد أهمية هذا الحادث . فمن نتائجها المباشرة أن تحول كل قسيس كاثوليكي بأرض القوط الغربيين أو البرجنديين إلى أداة تعمل على نصرة كلوفيس ، والحصول على تأييد السكان الرومان في غالة ، وجعله حليفاً مرغوباً فيه من وجهة نظر بيزنطة

ضد حكام الغرب الآريوسيين . وبفضل هذه الميزات ولضعف ألاريك الثاني الذى خلف يوريك على حكم القوط الغربيين ، قام كلوفيس بمهاجمة القوط الغربيين ، وبعد بضع حملات لم يحالفه التوفيق فيها ، استطاع آخر الأمر أن يقهرهم فى معركة فوجليه (Vougle) الشهيرة قرب بواتيه (٥٠٧) . فلقى ألاريك مصرعه ، وانتقلت أملاكه بغالة إلى قاهره (كلوفيس) ، وذلك فيما عدا شاطئ الريثيرا الذى بادر القوط الشرقيون إلى الذود عنه فى الوقت المناسب ، وبذا تمكنوا من الاحتفاظ به لإيطاليا . ومنذ تلك الساعة اقتصر حكم القوط الغربيين على أسبانيا . وكانت آخر ضحايا كلوفيس هى برجنديا ، ولكن فتحها لم يتم إلا بعد عشرين عاما من وفاته فى (٥١١) واستخدمت وسائل كثيرة ؛ منها الحرب الصريحة والارتباط بالمحالفات المبنية على المصاهرة ومساندة الأحزاب والخيانة والغدر والاعتقال . على أن برجنديا التى قامت بدفاع مجيد لم تخضع سنة (٥٣٢)^(١) إلا نتيجة لتفوق عدد قوات العدو .

الممالك الجرمانية الرومانية

ولا يخفى أن اتحاد ثقافتين إنما هو عملية بيولوجية ، وأن ما يترتب على مثل هذا الاتحاد من نتائج لا يمكن تحليله بدقة شأن خلق أى شخص وعدم إمكان تفسيره بنظريات مندل . ومع ذلك ، فإن ازدواج الثقافتين كان بالغ الوضوح فى المراحل الأولى . فإن معظم هذه الممالك سقطت قبل تحلل هذا الازدواج بزمان بعيد ، إذ إنه حتى مملكة الفرنجة نفسها لم تستكمل وحدتها التامة إلى أيام شرلمان . وكان الازدواج قطعة من طبيعة الاستيطان نفسه ،

(١) انظر ف ٣ القسم المعنون « المؤتمرات السكاوليسكية فى فرنسا » .

الذى يعتبر من تراث الجمهورية الرومانية . إذ إن الجند المرابطين بالأقاليم كانوا ينزلون فى بيوت الأهالى ، الذين كانوا يتنازلون لضيوفهم عن نسبة معينة من ممتلكاتهم (هى فى العادة الثلث) . وبمقتضى نظام الضيافة (Ho-pitium) كان بكل إقليم تقريباً فى القرن الرابع جماعات من الجند المرتزقة المحالفة (وهم محالفون من الناحية النظرية) . والراجح أن القوط والوندال كانوا يعتبرون — فى البداية على الأقل — عند الرومان بكل من إيطاليا وغاللة وأسبانيا ضعيفاً ثقيلاً ومؤقتاً من نفس ذلك النوع . وبنا كان الانقسام حاداً بين الجرمان (البرابرة) والرومان ، فالسكان المدنيون ، فى جانب ، وهم يقومون بالإدارة والزراعة والتجارة ، والجند فى جانب آخر — وهم فى الأغلب من البرابرة المهرطقة — لا يخضعون إلا لقوانينهم ، وعرفهم ، ولا ينزلون بالمدن ولا يدينون بولاء إلا لزعمائهم .

وكانت الملكية (حكم الملوك) شائعة الانتشار ؛ ولكنها لم تكن من الطراز الرومانى ، الذى تطور عن فكرة أوغسطس « الجمهورية » فقد كان الملك أو الرئيس الجرمانى ينتخب قديماً على يد جمعية الأحرار ، الذين كانوا يرفعونه على ترس ، وبذلك ينادون به زعيماً لهم . فالملك ذو الشخصية القوية المنحدر من أسرة شهيرة مثل أسرة آمال أو بالثيد أو ميروفتج ، كان يوسعه أن يتحدى حلقة المقاتلين الأشداء ، وإذا هو وفق إلى الظفر فى القتال أو الغزو تزداد قوته ونفوذه . فعندما اقتاد أالريك وجزريك وثيودوريك جماعات من أجناس مختلفة ونفذوا إلى الأراضى الرومانية ، لم يعد حكمهم قومياً ، بل تحول إلى زعامة شخصية تعتمد على أساس عسكرى . وزالت جمعية الأحرار من الوجود ؛ وأخلت الارستقراطية العنصرية المكونة من صفار الزعماء مكانها لطائفة جديدة مؤلفة من النبلاء يقومون بالخدمة فى

الوظائف اجتمعوا حول شخص الملك بوصفهم محافظى قصر (صناجة Seneschal) أو ماريشالات أو كونستبلات ؛ أو يتولون حكم أقاليم المملكة كالكونتات ، الذين جمعوا في أيديهم السلطين المدنية والعسكرية .

ومن الواضح أن هذا النظام البدائى مخالف تماماً لسم الوظائف عند الرومان ، فمثلاً من الجائز أن يعهد إلى رجل البلاط عند الفرنجة القيام بمهام خاصة . على أنه بقي من النظام المالى الرومانى بعض الآثار الجزئية ، حتى بمملكة الوندال نفسها . فبقيت الضرائب غير المباشرة — واستمرت المكوس على الكبارى والمعديات — وبقيت أيضاً رسوم الموانى ونحوها — واستمر السكان الرومان يدفعون ضريبة الدخل ما بقيت سجلات الدولة قائمة . على أن الجرمان لم يفهموا الضرائب المباشرة . ولم يكن نظامهم السياسى يستسيغها ، كما هو ظاهر لنا عند الفرنجة . كان الملك حاكماً مطلقاً : وكأن المملكة ملك خاص له يرثها ورثته ؛ وكانت إيراداتها تذهب إلى « خزائنه » . وليس عليه نحو رعاياه واجبات ؛ ولم يكن ثمة من الخدمات العامة ما يجرى الإتفاق عليه . وإذا نظرنا إلى الضرائب فى هذا الضوء تبين أن الضريبة لم تكن إلا ابتزازاً غير مشروع ، يتولى جبايتها عادة القوات المسلحة . فإذا كان الملك ممن مست قلبهم التقوى أو أصابه مرض خطير ، التمس منه الأساقفة تخليص روحه من نار جهنم بإحراق سجلات الحسابات .

ومن الآثار الموروثة أيضاً عن نظام الاستضافة ، أن كلا من الجرمان والرومان ظلوا يخضعون لقوانينهم الخاصة^(١) . ومع ذلك ، فإن ذلك الوضع

(١) انظر الزراعة الفصل الخامس عشر .

المتعب قد خففه التزام الجانبين لشيء من المساهلة والوفاق . ففي ممالك القوط الغربيين والبرجنديين التي اشتد بها الطابع اليوناني ، اقتبست مجاميع القوانين التيبوتونية الشيء الكثير من التشريع الروماني : أما في مملكة الفرنجة فقد صار القانون السالي المختلف تماماً عن القانون الروماني ، سائداً بالمناطق التي يغلب في سكانها العنصر التيبوتوني .

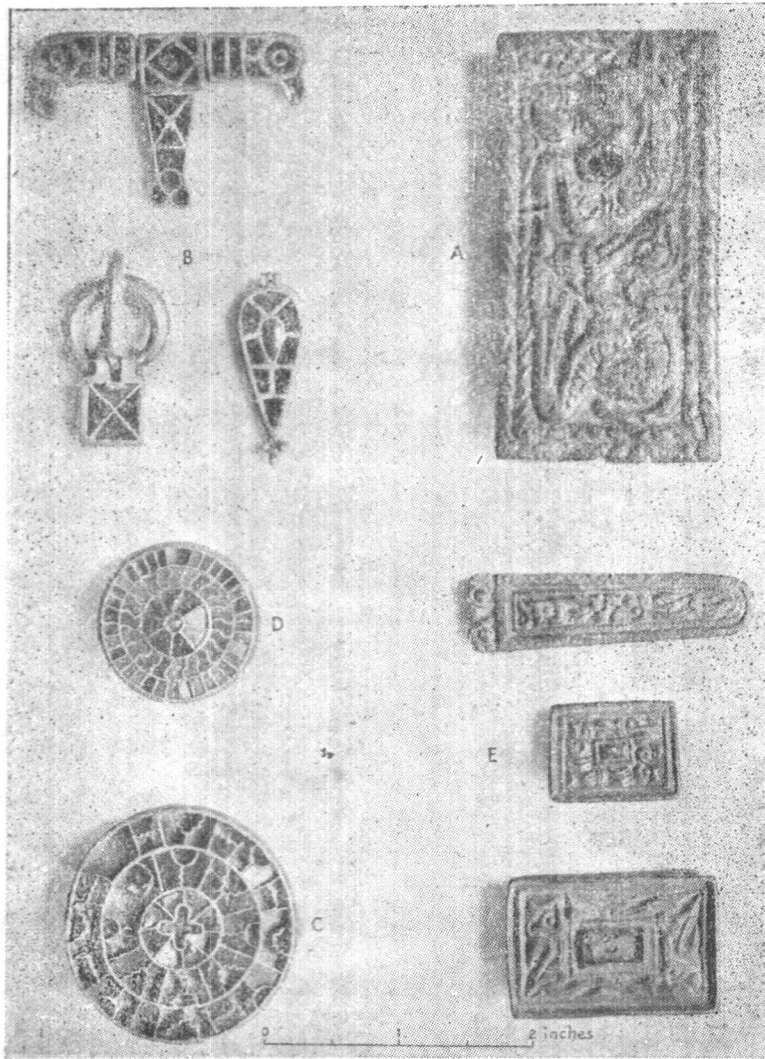
وكان المبدأ الرئيسي في القانون الجرمانى هو إبطال ما تأصل بين العائلات من عادة الأخذ بالثأر ليحل مكانها ما يكفله الملك من السلام . ولهذا الغاية وضعت قائمة مفصلة بقيم التعويضات . وكان لكل فرد دينه (Wergild) التي تختلف باختلاف سنه ومكانته ، والتي يدفعها قاتله لذوى قريبه . ولكل أصعب ثمنه : وكل جرح يقدر التعويض عنه بغاية الاهتمام . والقانون السالي يمتاز بالشمول والتفصيل : بما خصص به من التفاصيل حول سرقات الماشية أو الخنازير وعمر الحيوان وحالته ، وموضع الحادث وظروفه . ومن الواضح أن هذه التسويات لا علاقة لها بالعقوبة والجزاء ، فلم يكن الغرض منها سوى الحيولة دون تطور الأمور حتى تصل إلى حد العداوة والمنازعات . ومما يشهد بأهمية الأسرة كوحدة اجتماعية ، ما ورد في القانون السالي من نص مشهور يقضى بمنع الإناث من وراثة المزارع : وبنا توزيع الأرض بين الأبناء فقط بشرط ألا يخرج عن دائرة العائلة .

ومقدار الدية يمدنا بمعلومات ثمينة عن تنظيم المجتمع الفرنجى . فإن دية رجل البلاط ، وهى ٦٠٠ صولدى (Solidi) ، ثلاثة أمثال دية المقاتل الحر ؛ ودية الرومانى الحر (من جميع الطبقات) تعتبر نصف دية الفرنجى الحر ، كما أنها تعادل دية الفرنجى شبه الحر (Laeti) ، وهو من طبقة تقع

بمنزلة وسط بين الأحرار والرقيق ، وتقابل من بعض النواحي عند الرومان ، طبقة فلاحي الأرض الذين كانت ديتهم مع ذلك أقل من دية الرومان . أما الصناعات غير الأحرار والأكثر مهارة مثل الصياغة ، فتزيد ديتهم على دية سائر العمال . وإن مركز الروماني في هذا التصنيف ليبدل على انحطاط قدره . بيد أنه كان يستطيع تحسين مركزه بالدخول في خدمة الملك ، كما فعل كثير من النبلاء الغالبيين الرومان (Gallo - Roman) .

فرنسا في عهد كلوفيس

والراجح أن قوة الغزو الكاملة اقتضت على بلجيكا وشمال فرنسا . ويقع قلب مملكة الفرنجة شمالي نهر اللوار وشرقه ، ويضم مدن أورليان وباريس وريمز وسواسون وكبراي وكولن (كولونيا) . وفي إمكان المرء منا أن يتصور ما كان يتناثر في هذا الصقع من قرى وضياع : وهي مجموعات من بيوت ومخازن منخفضة البناء ومسقفة بالقش والقصب ، ومبنية بالخشب وأعواد الشجر والأقذار ، وتفصلها سياجات من غصون الأشجار عن الحدائق والبساتين والمروج والأرض المعدة للحرث . والواقع أن جميع ما نعرفه من أنواع اللحوم والفاكهة والخضر كان معروفاً وقتذاك ، كما يتبين من رسالة في التغذية كتبها لكلوفيس الطبيب البيزنطي أنثيموس ، الذي أرسله إليه ثيودوريك الكبير . ومن ألوان الطعام المحبوبة لحم الخنزير والبيض المسلوق طويلاً . ولكن البيض المسلوق لا يحظى باستحسان الطبيب . وهو يرى أن الجبن الطازج غذاء مفيد ، على أن ما كان قديماً وجافاً منه ، فليس سوى السم نفسه . ومما تذكره الرسالة السمك والدواجن ولحم الصيد واللحوم المطبوخة مع الخضروات وأنواع المشهيات المصنوعة من النبيذ والشهد ومركبات اللبن



(٥) جواهر البرابرة

ثم الجمعة وشراب العسل . وتقدمت الزراعة . وكان القوم يستخدمون الطواحين التي تديرها الثيران إلى جانب الرحى اليدوية ، كما أن استخدام الطاحون المائي الروماني أخذ ينتشر . ولم يكن يجرى بتلك المنطقة إلا قدر ضئيل من التجارة ؛ وكانت الواردات الأجنبية مقصورة على أدوات الترف كمصنوعات العاج والجوهر والقرنفل والفلفل والبلح والتين . وكانت الطبقة الحاكمة تعيش في معظم الأحوال بالريف ؛ وكان للأساقفة سلطان كبير على سكان الشوارع الضيقة بالمدن المسورة ، وكانوا يؤيدون دولة كلوفيس تأييداً قوياً . وفي مقابل ذلك خلّفت الكنيسة بالهبات السفية . وشيد كلوفيس وأبناؤه الأديرة في باريس . وتمكن نيكيتيوس أسقف تريف (Trèves) من اجتلاب العمال الإيطاليين لتعمير الكنيسة البازيليكية القديمة وإن عموها تعميراً رديئاً إلى حد ما . على أن أعمدة من الحجر الجيري حليت تيجانها بما حفر عليها من أشكال وجه الإنسان ، حلت محل أعمدة الجرانيت المكورنتية ، التي تحطمت عندما أحرق الفرنجة المدينة . ودهنت الجدران لمحاكاة الواجهات الرخامية السابقة . ومع ذلك فإن كنائس أخرى تزخر بالفسيفساء ورقائق الذهب والزجاج الملون . وفي (٤٧٠) أعيد بناء البازيليكية التي كانت تغطي قبر القديس مارتين بمدينة تور ، وهي مركز شهير للحج ، وأقيم بها مكان نصف دائري لجوقة المرتلين ، نقل طرازه عن مزارات الحج المقدسة في الشرق كالناووس المقدس ببيت المقدس . ولم يلبث هذا الشكل المعماري حتى تمخض عن طراز الحنايا (Chevets) بالكاتدرائيات الرومانسكية والقوطية بفرنسا . وتجلّى أيضاً في حلقات القوط والفرنجة مؤثرات شرقية ، هي مؤثرات الفن اليوناني السرماني المعروف بشبه جزيرة القرم ، بما فيه من أشكال حيوانية

(٨ - الصور)

تتخذ بأسلوب خاص ، ومن الجواهر القائمة المتلازمة ، أو مكعبات الزجاج المركبة في مثقبات الذهب . ويدبج لنا سيدونيوس صورة مشرقة لشاب من نبلاء الفرنجة وحاشيته في ثياب الاحتفالات والأعياد . وهو يشير إلى ستراتهم المخططة اللاصقة بأجسامهم والتي تعلوها عباءات خضراء أرجوانية الحواشي ، ومن فوق هذه معاطف من الجلد ؛ وتبدو ركبهم عارية وقد انتعلوا أحذية من الجلد ؛ وتأثلق زخارف خيولهم بما رصعت به من جوهر وهم بمحاملهم وسيوفهم ، وبما يحملون من البلط والحراب والتروس البراقة ذات السرر الذهبية والحواشي المفضضة ، يسرون خلف الأمير الذي ظهر بينهم في « عباءة قانية الحمرة كلهيب النار وسترة (توتقة) حريرية ناصعة البياض مرصعة بالذهب ، وقد اتسق شعره الأشقر وحذاءه الحمراوان وبشرته البيضاء مع ألوان عتاده وثيابه »^(١) .

والمرجع الرئيسى لدينا عن أحوال غالة الجنوبية في ذلك الزمان هو سيدونيوس أبولينارس ، وهو نبيل من النبلاء الغاليين الرومان (G.R) وسياسى وشاعر ، أصبح فيما بعد أسقف كليرمونت في أوفرنيه (Auvergne) . والمنظر الذى يصفه سيدونيوس منظر غريب التقت فيه آداب وطباع العصور القديمة والمصور الوسطى . وهو يشير إلى أن قلة من النبلاء قد اعتصمت بالقلع القائمة فوق الصخور العالية ، بينما ظلت غالبيتهم يعيشون في دور ريفية ضخمة ، ويقضون نهارهم ، شأنهم أيام هادريان ، داخل مكنتباتهم وحماماتهم وفي مزاولة اللعب بالأكر أو فى الصيد أو فى القيام بزيارة الأصدقاء . وكانوا يتناولون طعامهم تحف بهم الأستار الأرجوانية ويعبق الجو من حولهم بنغام

(١) عن ترجمة المستر أ . م . دالتون لسيدونيوس .

البخور، وعلى مواعيدهم صحاف الفضة الخالصة والكشوس التي تزيناها باقات الورود، ويتلهون بالاستماع إلى نغمات القيثارة والناي ومشاهدة الراقصات الكورنثيات. ويتبادل القوم فيما بينهم رشيق القصائد ورفع الرسائل، التي يتجاهلون فيها ماوسمهم الجهد، وجود البرابرة « المتشحين بالجلود»، والذين هم يقيمون في مما السكم، على أن انحدار مكانة روما أمر لم يكن خافياً. وربما أمكن المرء أن يهجو سراً أولئك البرجنديين الغلاظ، أو أن ينكر الآداب المرعية في بلاط القوط الغربيين، غير أنه لا بد للفرد في الحياة العامة أن ينزل لهم كل الملق. بل إن من الناس من تملك قلبه اليأس من روما فأخفت تراوده الأحلام بانفصال غالة عنها، وجعلوا ثقتهم في البرجنديين والقوط الغربيين الذين اصطبغوا بالصباغ الروماني. وتمر أمام أعيننا في ثروة ضخمة من التفصيل كل طرائق العيش المتنوعة في غالة الجنوبية. فتمر بنا صورة بلاط القوط الغربيين وملوكهم الطويل المشوق وصيده وموائمه وغرامياته، وتمر أيضاً أشكال الحياة من سكسونية وهيرولية وفرنجية؛ وفيها سادة الغاليين الرومان المتأدبون منهم والريفيون والأتقياء؛ وهناك الأسقف والراهب والتاجر؛ والكروم والمزارع والخانات والمسافرون والقصص والسياسة وشمر الحكمة والأمثال والمناظر الطبيعية والمشاهد العائلية. وعلى الرغم من أن سيدونيوس لم يشهد فتوح كلوفيس، فالراجح استناداً إلى مصادر أخرى أنه لم يترتب عليها تغيرات جنسية. ذلك أن الحضارة الرومانية لم تستأصل من جذورها، فإن البربري اقتطف في إعجاب الطفل الساذج الزهرة الواهنة التي فات أوان زهوتها؛ وإذا هي تدبل بين أصابعه.

إيطاليا في زمن ثيودوريك

على أن مملكة ثيودوريك الإيطالية تقف بمعزل عن ممالك غيره من الحكماء الجرمان . إذ إنها محاولة فذة لاستخدام نظام للضيافة في الاحتفاظ بالحضارة الرومانية كاملة غير منقوصة . كتب إلى الإمبراطور أناستاسيوس يقول : « إن مملكتي ليست إلا صورة مطابقة لمملكتك » . غير أنه كان في الواقع في وضع مخالف تماماً . إذ إنه لم يكن ملكاً إلا على أتباعه من القوط الشرقيين وغيرهم . بينما كان يتولى الحكم على السكان الرومان بإيطاليا بوصفه نائب الإمبراطور الذي يحمل ألقاب « سيد الجند » و « البطريرق Patricius » شأن ما فعله من قبل استيليكو أوريكيمر أو أودواكر . وتجنب ثيودوريك الحصول على إيضاح حول وضعه ذاك ؛ إذ إن ذلك كان ينطوي ضمناً على التسليم بحق الإمبراطور في الهيمنة عليه بل حتى خلعها ، بوصفه مجرد موظف طارىء . على أنه التزم الناحية النظرية في كل أعماله . فإنه لم يسك عملة باسمه ؛ كما أن قراراته لم تكن تطبق إلا في الولايات الإيطالية . إذ لا يجوز لأحد عدا الإمبراطور أن يضع رسمه على السكة ، ولا أن يسن القوانين (Leges) السارية المفعول في الإمبراطورية . فبقيت الإدارة الرومانية المدنية سليمة لم تمس ؛ ولم يكن في البلاط صناعلة^(١) ولا ماريشالات بل والى البرايتوري وكبير الموظفين (Magister officiorum) وغيرهما . وظل مجلس السناتو يعقد جلساته في روما ويلقى التبجيل من ثيودوريك . وظلت الولايات

(١) الصناعلة جم صناعال وهو ناظر أوحاجب القصر الملكي عند الفرنجة .

يحكمها ويجبى الضرائب منها موظفون من الرومان . على أن فجوة عميقة كانت تفصل بين القوط والرومان أى بين العسكريين والمدنيين . وكان الزواج بين العنصرين محظوراً . ولم يكن الفريقان يلتقيان إلا عند القمة فى شخص ثيودوريك الذى كان هو نفسه مواطناً رومانياً ، على الرغم من أنه ليس فى وسعه أن ينقل هذا الوضع إلى غيره . وكان القوط خاضعين لكونتات (Comites) الأحياء ، شأنهم فى سائر الممالك الجرمانية الأخرى . واستحدثت وظائف جديدة تتمثل فى الحماة (Saiones) الذين يتولون وقاية الرومان من ظلم القوط وخص حالات سوء استخدام السلطة مثلما كان يفعل عملاء الإمبراطور (Agentes in rebus)

وإن « مرسوم ثيودوريك » ليعطينا فكرة واضحة عن سياسته . فإنه عبارة عن مجموعة قوانين مستمدة كلها تقريباً من التشريع الرومانى وليس بها إلا مبتكرات ضئيلة . وقد بذلت محاولة خاصة ، كما حدث فى القانون السالى للاستعاضة عن الأخذ بالنار بالالتجاء إلى الطرق القانونية . ويحافظ المرسوم على المركز الممتاز لملك الأرض ، غير أنه انطوى أيضاً على تدابير لمنع الظلم الواقع على صغار الفلاحين (Coloni) . وقد صدرت قوانين صارمة لمناهضة الاختطاف وهى تعد دليلاً على قلة الأيدى العاملة . على أن الطبقات الدنيا أفادت بطريق غير مباشر ، لا بفضل الأمن والسلام اللذين أفاءهما حكم ثيودوريك القوى فحسب (يقول معاصر معجب به : « لم تكن بوابات المدن تغلق قط ») ؛ بل بالإضافة إلى لائحة الأسواق الدقيقة التى أصدرها وضبط أسعار المواد الغذائية . ولحرصه على أن تكون مؤونة الجيش رخيصة الأسعار ، منع ملاك الأراضى من الاستغلال فزاد انخفاض الأسعار . وكان الغرض العام من المرسوم المحافظة على القديم . فليس وراءه أية نظرية يقوم عليها ، إذ الهدف الأول

والأخير منه الاحتفاظ بالحضارة الرومانية إلى الأبد ، ثابتة دون تغيير ، وأمنة داخل حلقة الحراب القوطية .

وكان ثيودوريك سعيد الحظ بما دحه كاسيودورس ، الذى يعرض سياسة سيده فى عبارات ملتوية ، وهى وإن كانت تنطوى فى تكلف على فخامة اللفظ والخذلقة ، فإنها تعنو أحياناً إلى مرتبة الفصاحة الحقة ، ويتجلى فيها دائماً روح كريمة شريفة . على أن التدابير التى اتخذها تفصح عن نفسها . فإن الضرائب أُجلت ، واقتدى المواطنون الرومان من قبضة المغيرين البرجنديين . وحصنت قلاع الحدود . وجددت الأسوار وسقايات المياه ودور التيارات^(١) بروما ورافنا وقيرونا . وحرصت الحكومة على ما اختصت به العاصمة من حق المجانية فى الحصول على الخبز ومشاهدة السيرك . وقام فى رافنا قصر فخم وكنائس عديدة ومقبرة فخمة ، وكان بلاط ثيودوريك فى رافنا مركزاً للحكومة قوية . وكانت أيضاً وسيطاً ينقل الثقافة إلى الممالك الجرمانية ، أو على الأقل ، بعض مظاهر المدنية والأعيىها . فقد تلقى ملك برجنديّة ساعة مائية ، على حين حصل كلوفيس على موسيقار وطبيب ييزنطى مع التحيات المناسبة . وانطلق شعراء كثيرون من إيطاليا يلتمسون حظهم عند ملوك غالة . وظهرت نهضة أدبية صغيرة . وكانت ميلان من مراكز تلك النهضة ، وازدهرت فيها مدارس النحو واللغة تحت رعاية الأسقف لورانس فكان يؤمها الصبيان من كل صقع حتى من غالة . فهنا وفى ميلان ورافنا كان الرومان أمثال كاسيودورس وإنودىوس يؤيدون حكم القوط . ولم يلق حكم القوط معارضة إلا فى روما .

(١) التيارات : التياراتو لفظة أقرها جمع اللغة العربية ونشرها بمجمعه الوسيط . وهى هنا تدل على المدرج العظيم الذى كان يجتمع فيه الرومان لمشهود الحفلات . (المترجم)

فإن المدارس الشهيرة بالعاصمة بما تهيأ لها من تقاليد عريقة وأساتذة موفوري
المرتبات ، كانت تعتبر المعقل الحصين للأسرات السناطورية العريقة وموئل
التراث القديم . وكان لكثير من هذه العائلات صلات بالقسطنطينية ؛ ثم أخذ
ثيودوريك فيما بعد برتاب فيما يجرى في تلك الناحية من مؤامرات على الحكم
الآريوسى والقوطى .

ويعتبر بوينيوس أعظم الرجال فى إيطاليا زمن القوط الشرقيين ، وهو
من تلك الشخصيات النادرة الذين يجمعون فى أنفسهم كل معارف زمانهم .
فهو عالم وفيلسوف ولاهوتى وشاعر ، وقد أصبح قنصلا وهو فى الثلاثين من
عمره ، وأدى خدمات هامة لثيودوريك . ولكن لعله يمثل عصره حق التمثيل
بذلك التناقض بين ظاهر مركزه وحقيقة ذلك المركز . فى تلك القصيدة المترعة بالحق
التي جعل عنوانها « عن بوينيوس وتقلده السيف » أظهر إنوديوس التناقض
العميق بين ما كان للحزب الرومانى « من مزاعم ضخمة خيالية » وما كان
جارياً فعلاً من تفوق القوط فى السلاح ، على أن بوينيوس فى كتاباته — رغم
تفوقه فى الفنون الأربعة الحرة^(١) — واعتباره الشارح الصادق لأرسطوطاليس
وفروريوس ، وميله إلى التعاريف والصفات المميزة وكونه من رجال اللاهوت
البارعين — لا يبدو أنه « آخر الرومان » وإنما هو النموذج الأول للعلماء
والمدرسانيين^(٢) فى القرون الوسطى . وترجم الملك ألفريد إلى الإنجليزية

(١) الفنون الأربعة الحرة : (Quadrivium) هى فى الترية بالقرون الوسطى فروع
الرياضيات الأربعة : الهندسة والحساب والفلك والموسيقى . (المترجم)
(٢) العلماء المدرسانيون (Schoolmen) : هم فلاسفة الصور الوسطى أو علماء
اللاهوت بها ، والمدرسانية مصطلح وضعه المترجم للدلالة على هذا النوع من الفلسفة .
(المترجم)

أشهر أعماله وهو الكتاب المعروف باسم السلوى الفلسفية Philosophiae Consolatio . وكان أثره قوياً في فكر العصور الوسطى كأي كتاب آخر . وقد صنفه يوثيئوس وهو في سجنه . وأدرك ثيودوريك أن مسارعة ، النبلاء إلى قبول مراسيم الإمبراطور جستين المناهضة للأريوسية ، سوف تدمر كل ما قام به في حياته من عمل . فأمر — وقد أفقده المرض والشكوك توازنه العقلي — بإعدام يوثيئوس مع إنزال التعذيب القاسي به . واعتبره الكاثوليك شهيداً ، وإن كان الأخلق به أن يسمى بشهيد قضية السناطوريين . ويرجع ذلك إلى ما كان من الخصومة بين حزب الفاتيكان بمن انحاز إليه من رجال القانون من العامة (الپلييان) ، الذين أخذوا وقتل في وضع الأساليب والطرائق التي اشتهر بها بعد ذلك المجلس البابوي ، وبين الدائرة الصغيرة من الأسر النبيلة المستمسكة بحكم نشأتها وتربيتها بمثل عليا أقدم عهداً وأشد تهديباً . .

وتنقسم سياسة ثيودوريك الخارجية إلى فترتين ؛ ويعتبر ظهور كلوفيس حداً فاصلاً بين هاتين الفترتين . فكانت خطته أول الأمر أن يطمئن إلى سلامة الترخوم الإيطالية بإبرام سلسلة من المحالفات مع الممالك الجرمانية الواقعة إلى الغرب منه . ذلك أن تلك الدول الآريوسية البربرية تشترك جميعاً في نوع المشاكل المتعلقة برعاياها من الرومان المستمسكين بالعقيدة السلفية ، والمتصلة بعلاقاتها بالإمبراطور (البيزنطي) السيد الأعلى اسماً . وكان هدف ثيودوريك أن يقيم توازناً للقوى بين هؤلاء الحكام ، وأن يقوم بدور الوسيط بينهم وبين القسطنطينية . وبهذه الوسيلة استطاع أن يكفل لنفسه الزعامة على الممالك الجرمانية ، وأن يجعل نفسه نافعاً للإمبراطور . وكان يرجو من وراء ذلك أن

يكون مقاومة قوية لأية فكرة لاسترداد إيطاليا (Reconquista) تراود عقول رجال الدين أو الإمبراطور في بيزنطة . (فإنه لم ينس سقوط سلفه أو اودواكر) . ووفقاً لهذه الخطة تزوج ثيودوريك من شقيقة كلوفيس ؛ وزوجت إحدى بناته من الأريك الثاني ملك القوط الغربيين ، وتزوجت أختها من سجموند أمير برجنديا . وتزوجت أخته من ثراسامند ملك الوندال ، وبذلك أزال الخطر من جنوب إيطاليا . أما إقليم الدانوب الذي يصح أن تتجازه الجيوش البيزنطية فقد أمنه طرد الجيبيد من سرميوم المركز الاستراتيجي العام .

وتحطم الصرح المعقد بأكمله بضربة واحدة ، يوم انتصر كلوفيس والبرجنديون في (٥٠٧) على جيوش القوط الغربيين في وقعة فوجليه^(١) . وعندئذ لم تعد هناك أية جدوى من كل ما اتخذته ثيودوريك من وسائل لتحذير الأريك مما يحدق به من خطر ، ولعزل برجنديا الدولة الحاضرة . وهنا علت في غالة كلمة دولة كاثوليكية كبرى تؤيدها القسطنطينية فيما يبدو ، وكانت إسفيناً يمتد بين الدول الآريوسية المذهب . وكان لابد بأي ثمن من منعها من الوصول إلى البحر المتوسط . وذلك بأن يزحف ثيودوريك على غالة ، وينتزع إقليم بروقانس من البرجنديين . ويجعل نفسه قبلاً على حفيده القوطي وارث عرش أسبانيا . وتُعقد محادثات جديدة مع الثورنجيين ، وهم الجيران الأقوياء للفرنجة ، ومع الهيرول على الدانوب . وتُحصن قلاع الألب . وتحل محل سياسة التوفيق بين المصالح المختلفة سياسة الصدام بين الدول . على أن هذه التدابير ، لم تصب - فيما يبدو - شيئاً من النجاح هي الأخرى . وتوفي كلوفيس في (٥١١) ؛

(١) انظر : « الممالك الرومانية الجرمانية ف ٣ » .

وعلى الرغم من أن العلاقات مع القسطنطينية كانت تتغير بلا انقطاع تبعاً لتغير مزاعم البابا ودعاويه ، ولما كان من الخلافات المذهبية ومؤامرات السناتو والمطامع الإمبراطورية ، فإن تلك العلاقات لم تلبث - فيما يبدو - أن استقامت حينما تولى جستين سنة (٥١٨) العرش عقب أناستاسيوس . وكانت لثيودوريك ابنة أخرى هي أما لاسوننا زوجها من يوثاريك ، وهو قوطى يجرى فى عروقه الدم الملكى ، ثم بدا كأنما تأكدت له وراثته الملك يوم تبناه جستين رسمياً وأصبح زميلاً له فى منصب القنصلية . ويختم كاسيودورس تاريخه بذكر الحفلات البهيجة التى أقيمت فى روما احتفالاً بهذا الحادث . ولكن الجوتلبد وآذن بالإعصار قبل وفاة ثيودوريك . فقد تولى العرش فى برجنديا أمير كاثوليكي ، فأصبحت بذلك خاضعة لسلطان كلوفيس ، وأخذت تتفاوض مع بيزنطة تقدم إليها مودتها . وأخذ يوم الصراع بين القوط الشرقيين والفرنجة يزداد قرباً كلما اشتد ضعف الدولة الحاضرة . وفى تلك الأثناء أصبح الهيرول جنداً مرتزقة محالفين للإمبراطورية، وأخذوا يهددون الحدود الشمالية الشرقية . أما الوندال، وهم من أخطر الأعداء ، فقد أظهروا عداوتهم وكرهيتهم لثيودوريك . والآن وقد اندمل الانشقاق بين روما والقسطنطينية ، فإن البابا والنبلاء أصبحوا عند ذاك يداً واحدة فى تأييدهم للإمبراطور . وأصبحت أيام الحكم القوطى الشرقى معدودة ، ومن ثم لم يعد لما اتخذ ثيودوريك من إجراءات صارمة للقضاء على كل مناهضة لحكومته من أثر سوى أن أضافت إلى ثيودوريك بطل الجرمان فى ملحمة ديترتش (Dietrich) ، صورة أخرى وردت فى الحكايات الشعبية الرومانية وسير القديسين لشخصية ثيودوريك الظالم المضطهد البشع الذى تراءت له فى ساعة نزعه الأخير فحيايه ، وألقت به أيديهم الثائرة فى نار جهنم البركانية .

الآريوسية الجرمانية

حدث بعد (٣٤٠) أن أولفيلاس تمكن من هداية بعض القوط الساكنين عند مصب الدانوب إلى اعتناق المسيحية ، وكان أجداده قد نزحوا من قبادوقيا في إحدى الغارات وأكسبه عمله الكبير لقب « رسول القوط » . وقد ترجم الكتاب المقدس إلى لغتهم ، ولكنه أسقط من الترجمة سفر الملوك ، إذ رأى أن قصص حروب العبرانيين قد تبلغ من الإثارة مالا يحتمله هؤلاء القوم المعروفون بشدة الحمية . ولقد لقي أولفيلاس في البداية مقاومة عارمة ، ولعل ذلك يعود إلى عرضه المسيحية في صورة العقيدة المسالمة ، بيد أن الإنجيل لم يلبث أن انتشر بسرعة ، وانتقل غرباً مع القبائل الغازية إلى إيطاليا وغالة وأسبانيا وإفريقية . وكان أولفيلاس أريوسى المذهب ، وأصبحت هذه الهرطقة هي الصورة العامة للمسيحية الجرمانية ، على الرغم من أنها كانت تتوارى من الإمبراطورية نهائياً . وكانت النتائج السياسية لهذه الحقيقة باللغة الأهمية ؛ إذ إنها دقت بين الرومان والبرابرة إسفيناً أقوى وأعظم من العنصر والثقافة ، والواقع أن مذهب آريوس الذى أصبح يطابق وقتئذ المدينة الجرمانية ، — تعرض لتغيرات عديدة . إذ إن هذا المذهب ظهر أول الأمر على أنه خلاف لاهوتى . ولم يلبث أن تطور في أرض البرابرة إلى كراهية للاعتقادات (Dogma) زاد في أوارها — دون أدنى ريب — عجز الجرمان عن فهم أسلوب اليونان في التحايل الفكرى الخافق الذى كان في حد ذاته ثمرة تقاليد في الفلسفة الجدلية لا يقل عمرها عن ألف سنة ؛ وهذا البغض للاعتقادات يعتبر عودة إلى التعاليم البسيطة التى كانت سائدة قبل مجمع نيقية . ولم يقتصر الأمر على نقل الكتب المنزلة إلى اللسان القوطى ؛ بل تجاوزوه

إلى حد ما إلى الصلوات بالكنيسة . والراجح أن تنظيم الكنائس الأريوسية ، وهي المنقطعة الصلة بالنفوذ الكاثوليكي لاتهامها بالزندقة ، فضلا عن فارق الجنس ، — قد تأثر بالعرف الجرمانى ، على حين أن انعزال الكنائس المستقلة إنما يرجع إلى ضغط العرف الدستورى . وعلى غرار النظام الإدارى للأقاليم فى داخل الإمبراطورية ، قام سلم وظائف الكنيسة الكاثوليكية المؤلف من البطارقة والأساقفة . ولعل ما تبقى من آثار الروابط الوثنية القديمة بين القبائل والكهانات المحلية كان له أثر قوى فى تحويل الكنائس الأريوسية بكل مملكة من الممالك الجرمانية إلى كنيسة قومية لا تتجاوز دائرتها حدود قومها وتخضع لنفوذ ملكها ويشدد حرصها على تقاليدها القومية .

وكان الرعايا الكاثوليك لدى ملوك الجرمان يلقون تسامحا كبيرا فى المعاملة؛ فلم يكن ثمة ما يدعو للقيام بمحاولة منظمة لمحلهم على اعتناق المذهب الأريوسى، وذلك بسبب الانفصال التام بين الجرمان والرومان . إذ كان الإحساس الذى ساد الجميع هو أن عقيدة الرجل هى عقيدة أمتة : وإن كلمة ثيودوزيك فى هذا الشأن معروفة مشهورة حيث يقول : « نحن لا نستطيع فرض دين على أحد ؛ فلا ينبغي إجبار أى إنسان على الإيمان بشئ يناقض إرادته » . ومع ذلك فمن العسير الفصل بين الدين والسياسة ، ومن ثم فإن جميع ما كان يتخذ من إجراءات القمع فى كل الممالك الجرمانية كان يستند إلى ما كان الرومان يبدلونه من محاولات للانتماء مع إخوانهم الكاثوليك داخل المملكة أو خارجها بقصد إعادة الحكم الإمبراطورى ، أو بقصد مساعدة ملك كاثوليكي مثل كلوفيس فى فتوحه . على أن الارتياح فى وقوع الخيانة والكراهية العنصرية ، طالما شحذت هذه الإجراءات فأحالتها إلى اضطهاد . وظهر بين

الوندال في إفريقية عامل آخر هو لبيب التمسب الديني — غير أنه ينبغي لنا ألا نبالغ في آثار هذه المسألة الأخيرة . ولم يحدث أى اضطهاد ديني ما بقى جزريك على قيد الحياة ، وإن تمخضت ظروف الفتح الوندالي بطبيعة الحال عن بعض المصاعب . وكاد جزريك أن ينشئ من شعبه نواة مركزية تنجمع حول قرطاجة ، وينبغي أن تحتفظ بالطابع القومى^(١) . ومن ثم فإن الرومان المجاورين قد طردوا من ممتلكاتهم ، التى أصبحت « من نصيب الوندال » ؛ وتقرر أيضاً طرد رجال الدين الكاثوليك من المنطقة ، لكي لا تنسرب إليها مؤثرات رومانية ، وانتقلت أملاك الكنيسة إلى الأريوسيين ولم يبدأ الاضطهاد المنظم للكاثوليك إلا فى (٤٨٣) وفى عهد هونريك الابن الممقوت لجزريك ، فنشب أول الأمر بالمنطقة المحيطة بقرطاجة ، ثم انتشرت المملكة بأكملها ، وعلى الرغم من شدته فإنه انتهى بموت الملك فى السنة التالية .

المؤامرات الكاثوليكية فى فرنسا

لم يكن القوط الغربيون يضعون فى اعتبارهم سوى نقطة الخلاف السياسى . إذ إن ملكهم يوريك — وهو يسيطر نفوذه على أوفرنى — وجد أن من الضرورى أن يأمر باعتقال سيدونيوس أسقف كليرمونت وزعيم الأرستقراطية الغالية الرومانية ؛ غير أن الاعتقال لم يكن بالغ الشدة ، ويظهر أن أشد ما كان يضايقه هو هذر عجوزين شحطاوين تحت نافذة سجنه ، وكان يمتد خلف

(١) ومن قبيل هذه المراكز تجمعات قوط أودواكر وثيودوريك حول رافنا وفيروما (وديرينش البرق فى المنحة هو ثيودوريك الفيرونى) ومدن شمال إيطاليا ؛ ونجم الفرنجة فى شمال شرق فرنسا والسويش فى جاليكيا .

الغزاة أثر طويل مما ينبعث من الكنائس المحترقة من الدخان وما ينمو في الهياكل المخربة من الأعشاب ، غير أن السكان الرومان في غالة وسائر الجهات ، لم يتعرضوا للأذى بعد أول هجوم عليهم سواء من الفرنجة أو القوط . على أن ظهور كلوفيس ، وهو جرمانى كاثوليكي غير وضع الأمور كلها . ذلك أن المقاومة الكامنة الناشبة بين الآريوسيين والكاثوليك في المملكتين الكبيرين للقوط الغربيين والبرجنديين ، أصبحت وقتذاك جلية لانحطائها العين . إذ اجتمعت في الكاثوليكية كل تقاليد روما وحضارتها . كانت الكاثوليكية قوة دولية ، وكانت الحلقة الأخيرة مع عواصم الإمبراطورية ، التي يرأسها كثير من عائلات غالة السناطورية^(١) ، وهي التي تتولى تخفيف ويلات المجاعة أو الفقر . وإزاء هذا الوضع وهذه المعارضة ، لم يكن بوسع الكنائس القومية الآريوسية التابعة لأقلية حاكمة من البرابرة ، بما طبعت عليه من روح جرمانية ونظام مركزي ، أن يكون لها في آخر الأمر السيادة .

وقام رجال الدين الكاثوليكي بكل من مملكتي القوط الغربيين والبرجنديين بمؤامرات متماثلة قصد بها العمل على زيادة بسط سلطات الفرنجة . فإن قيصر يوس (Caesarius) أسقف آرل وهو من رجال العلم والسياسة ، قام بدور كبير في الأحداث التي تركزت حول حصار آرل المشهور بمن فيها من حامية من القوط الغربيين ، وذلك بفضل القوات المشتركة من البرجنديين والفرنجة . على أن الأسقف تعرض للنفي فترة من الزمن ، لاثمائه بمحاولة خيانة المدينة وتسليمها لبرجنديا . واستولى القوط الشرقيون فعلا على المدينة ،

(١) السناطورية : نسبة إلى مجلس السناطو ورجاله كما هو واضح . (المرقم)

وفشل بذلك قيصر يوس في تحقيق مراده ، حتى إذا انهزم القوط الغربيون قرب فوجليه ، لم تعد مسألة اعتراف فرنسا بأجمعها بسيادة كلوفيس عليها إلا مسألة وقت . وفي برجنديا ، كان يشغل أهم كرسى أسقفى بها ديبولماسى عظيم هو أفيتوس من فيينا (Avitus of Vienne) . وعلى الرغم من صلته الوثيقة بكلوفيس ، حرص على توطيد علاقته بجاندوباد ملك برجنديا الذى أحسن معاملته هو والكاثوليك ؛ ولكن أفيتوس لم يتردد فى العمل لصالح الفرنجة . وذلك لأنه كان يضع مصالح كنيسته فى المقام الأسفى . وربما جاز لنا أن ندلى إليك بالحقائق الأساسية فى هذا الموضوع . فالمعروف أن كلوفيس حاول أول الأمر فتح برجنديا (٥٠٠) بأن ساند ثورة شقيق جاندوباد ؛ ومن أسباب فشل الثورة تأييد القوط الغربيين لجاندوباد . على أن أفيتوس كان يستمتع بنفوذ جارف فى البلاط البرجندى ، حيث كان معظم أفراد الأسرة الملكية يعتقدون المذهب الكاثولىكى فعلا ، وحمل جاندوباد على تغيير سياسته من النقيض إلى النقيض ، والانضمام إلى قضية الكاثوليكىة الفرنجية ، بأن يتخلى عن الخطة التى سبق لملك القوط الشرقيين ثيودوريك أن اهتم بوضعها ، وتقضى هذه الخطة باتخاذ المصاهرة أساساً لعقد محالفات بين الممالك الجرمانية الأروسية . وكانت تلك هى النقطة الحاسمة فى سقوط برجنديا . ذلك أن الفرنجة والبرجنديين اشتركوا فى تقويض مملكة القوط الغربيين فى معركة فوجليه ؛ ولكن برجنديا التى اتخذت أداة ماعمت أن فقت كل ما اكتسبته من أراضى نتيجة لتدخل ثيودوريك الذى كان يده ساحل الريشير^(١) ، على حين أن الفرنجة أقدموا فى خسة ودناوة على اقتسام الغنائم

(١) انظر : « القوط والرومان ف ٣ » .

مع القوط الشرقيين . وفي عهد سيجسموند الملك التقى الضعيف ، اعتنقت
برجنديا المذهب الكاثوليكي رسمياً وبذلك صار لأفيتوس وشيعته من رجال
الكنيسة أكبر نفوذ . وعندما قتل سيجسموند ابنه ، وكانت أمه ابنة أخت
ثيودوريك ، حدث شقاق صريح بينه وبين القوط الشرقيين . وبادر الفرنجة
إلى اغتنام الفرصة فغزوا برجنديا . وهزم سيجسموند ولم ينقذه السحابة إلى
أحد الأديرة من القتل لاهو ولا عائلته . فإن المغيرين قذفوا بهم في إحدى
الآبار . على أن أخاه جودومير نجح في صد الفرنجة فترة من الزمن ؛ وراح
بهمة عظيمة وعزم قوى يعيد تنظيم الجيش ويصلح المالية ، وأوقف
المؤامرات الكاثوليكية عند حدها ، بل لقد نجح في العدول عما انتهجه
جاندوباد من اتجاه مدمر في السياسة البرجنديّة بأن تحالف مع القوط
الشرقيين . ولكن ثيودوريك كان قد مات ، وحلت الاضطرابات بمملكته .
وزالت قوة القوط الغربيين من فرنسا ، ولم يعد ثمة ما يوقف تقدم الفرنجة .
وفي (٥٣٢) عاود خلفاء كلوفيس الهجوم ، ومن ثم سقطت برجنديا بعد
أن قاتلت حتى آخر رمق — أمام هجمات الكاثوليك المظفرين . وعندئذ
تكلل ما بذله أفيتوس وقيصريوس من جهود بالنجاح بيد أن ما حصل
عليه رعاياها من الكاثوليك من امتيازات لم يكن له أثر كبير في إرجاء
تدمير الممالك الآريوسية في غالة . وبقيت المسألة الكاثوليكية تشغل أذهان
حكام القوط الغربيين في أسبانيا إلى أن وحد ريكاريد (٥٨٦ — ٦٠١)
كلّة رعاياه وأمن حدوده باعتناق العقيدة السليمة .

وتوج كلوفيس عمله العظيم في غالة بإِشاء كنيسة قومية لها ، جمعت بين
الميزات السياسية للنظامين الكنسيين الآريوسى والكاثوليكي . إذ خضعت



(٦) ب — صورة عبادة المجوس
(المدرسة السورية)



(٦) ١ — صورة آل سبباخي
(مدرسة الإسكندرية)

للكنيسة لسلطة الملك ، وكان سلم وظائف كهنوتها على اختلاف درجاته عوناً عظيماً لحكمه ؛ وكانت حدود السلطة الكنسية تطابق حدود مملكته تمام المطابقة ؛ ولم تكن مطرانية آرل تحظى إلا بمكانة شرفية على الرغم من الاعتراف بها كمثلة للكرسي البابوي . وفي الحين نفسه تأكمت مزايا الاتصال بروما وبيزنطة ؛ ولم يمدّمة ما يدعو إلى الخوف من المؤامرات الكاثوليكية ؛ ومن الاعتبارات الهامة أن كلوفيس لم يمدّ بخشي — شأن غيره من حكام الجرمان الوندال — من أن تطمس الشخصية القومية للجرمان تحت كثرة السكان الرومان الذين يفوقونهم في العدد والحضارة . إذ كان بنو جلده من الفرنجة بشمال الهوار موفوري العدد جداً ؛ كما أن أعداداً ضخمة من التيوتون كانت تنزل قريباً منه فيما وراء الراين ، وحصلت مملكة كلوفيس بإخضاعها الألمان على طابع جرمانى فتحقق بذلك التوازن مع السكان الغاليين الرومان في البلاد التي فتحها أخيراً .

ثيودوريك والكنيسة

على أن علاقة ثيودوريك برعاياه الكاثوليك عادت عليها أحوال البابوية بالنعقيد والضرر، ولاسيما الانشقاقان الخارجى والداخلى، والذان أثرا في اتجاهه نحو الرومان والقسطنطينية . وعلى الجملة وقع التنازع بين ثلاث دعاوى متصارعة ؛ الدعوى الأولى تتعلق بما يزعمه البابا لنفسه من الصدارة على الكرسي الرسولي ؛ وأن يكون المرجع الأخير في كل ما يتعلق بالاعتقادات (Dogma)، أما الدعوى الثانية ، فتتصل بما يطلبه البطريرك البيزنطى من المساواة مع روما والأسبقية على سائر البطريركيات في الشرق ؛ والدعوى الثالثة والأخيرة هي

أن يكون للإمبراطور على الجميع السيادة العامة الشاملة . ولم يكن مفر من حدوث الاحتكاك بين الادعاءات الثلاثة ، ولم يكن مفر من أن يؤدي الاحتكاك إلى الانشقاق بين روما والقسطنطينية ، الذي امتد من (٤٨١ إلى ٥١٨) . ومن الطبيعي أن يشجع ثيودوريك هذا الصدع الذي منحه تأييد البابوية . وزاد نفوذه قوة عندما تمخضت الانتخابات البابوية عن ظهور مرشحين متنافسين ، التمس كل منهما المساندة من الملك الآريوسى . ولعل سيماخوس ، الذى كان عدواً للوفاق مع بيزنطة لم يظفر بالنجاح فى الانتخاب لكرسى البابوية إلا بفضل ثيودوريك ، على الرغم من أن الانتخاب من الناحية الرسمية كان حراً . والواقع بعد ذلك أن ما حظيت به الكنيسة من الحرية زمن ثيودوريك يفوق إلى حد كبير ما نالته فى عهد كلوفيس أو جستينيان .

وقد اتحد البابا والسناطو لمناهضة بيزنطة طوال حكم الإمبراطور أناستاسيوس المارق (٤٩١ — ٥١٨) . وترتب على ارتقاء جستين العرش فى (٥١٨) وعودة حزب العقيدة السلفية السليمة إلى تولى مقاليد السلطة ، أن قامت بروما حركة تدعو إلى عودة الوفاق مع ثيودوريك . إذ إن مصالح البابا والسناطو والقوط الشرقيين ، لم تبرح واحدة ومتطابقة ، وذلك لأن ثيودوريك كان يطمح فى أن تعترف بيزنطة بابنه يوثاريك خلفاً له فى السيادة على إيطاليا بعد أن طال رفض أناستاسيوس الاعتراف به ، وبذلك يزداد مركزه قوة . وما لبث ثيودوريك حتى حصل على هذا الاعتراف المنشود فى الوقت المناسب ، وبذلك انتهى الانشقاق . ومع ذلك لم تمحسن الأمور . فلم يلبث يوثاريك أن مات بعد فترة قصيرة . وجدد جستين التدابير لمناهضة الهراطقة الآريوسيين — وهى ضربة مباشرة سددت إلى المملكة القوطية . وبات التقارب بين نبلاء

روما وبين بيزنطة شيئاً يكرهه ثيودوريك . وطفحت السنوات الأخيرة من حكمه بالشكوك التي ساورتها والقساوات التي بدرت منه ، على الرغم من أنه لم يجر أى اضطهاد منظم للرومان أو للكاثوليك باستثناء ما كان من إعدام سيماخوس^(١) بوثيوس عضوى السناتو .

(١) يجب التمييز بين سيماخوس هذا الذى كان صمياً لبوثيريوس وبين أسقف روما الذى كان يحمل الاسم عينه (سيماخوس) كما يجب تمييزه أيضاً من سيماخوس عضو السناتو فى القرن الرابع وزعم المعارضة الوثنية ولصير القديس أوغسطين ، وصديق أمبروز .